تفريغ السلسلة الصادرة
عن إذاعة البيان

# أعمال القلوب

الطبعة الأولى 1447 هـ





بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

# أعمال القلوب

## الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ

مركز إنتاج الأنصار



مؤسسة صرح الخلافة



# الفهرس

# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

يسرُّ إخوانُكم في مؤسسة صرح الخلافة، أن يقدموا لكم تفريغ سلسلة (أعمال القلوب) الصادرة عن إذاعة البيان. ومرجعها الذي اعتمد عليه المتحدث هو ما كتبه الإمامُ ابنُ القيم -رحمه الله-، في كتابه مدارج السالكين. وقال المتحدث عن طريقة سلسلته: "أغلبُ ما سيُقرأُ ويُعلَّقُ عليه ويُشرَحُ سيكونُ من كتابِهِ مدارجِ السَّالكين، ويُؤخَذُ منه أمورٌ باختصار".

فهذه سلسلةٌ جزيلةٌ عظيمةٌ كبيرةٌ بمحتواها، كثيرةٌ بمعانيها، مكوَّنةٌ من تسع عشرةَ حلقةً، تمَّ مراجعتُها نحويًّا ولغويًّا، وُجِّدَتْ في السلسلةِ علاماتُ التَّنصيصِ للآياتِ والأحاديثِ كلٌّ على حسبه، ووجِّدَتْ كذلك الألوانُ للآياتِ والأحاديثِ والأشعارِ كلٌّ على حسبه، وخُرِّجَتِ الأحاديثُ النبويَّة.

نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ أن يثبت قلوبنا، ويرمِّمَ ما انهدم مِن طبائعنا، ويحسن أخلاقنا، ويجعلَنا أشدَّاءَ على الكافرين، رحماء بالمؤمنين، كما ونسأله -سبحانه- أن يجنِّبَنا صفات المنافقين، وأن يرزقنا الصبر واليقين والإخلاص والتوكل عليه.

**إخوانكم في صرح الخلافة**







# مقدمة البرنامج

تستمعونَ الآنَ إلى برنامج: "أعمالُ القلوب".





# الحلقة الأولى: الإخلاص

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فإننا نفتتحُ -بإذن الله جل وعلا- هذه السلسلةَ المباركةَ التي نأخذُ فيها ما يتعلقُ بأعمالِ القلوبِ وفقهِ أعمالِ القلوب، أسأل الله -جل وعلا- أن يبارك فيها، وأن يبارك في مَن يسمعُها؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

نظرًا لما لأعمالِ القلبِ من أهميَّة؛ فإن أعمال القلب هي المحركةُ لجميع البدن، وذلك أنَّ من عقيدة أهل السنة والجماعة أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ واعتقاد، ومن العملِ عملُ القلب، وكلُّ عملٍ ظاهرٍ على البدن فإن القلبَ أصلُه وأساسُه؛ ولذلك قال النبي ﷺ كما في الحديثِ الصحيح الذي رواهُ البخاريُّ عن النعمانِ بن بشيرٍ -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: (إنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ)، ولذلك قال بعضُ السلف: "القلبُ مَلِكٌ والأعضاءُ جنودُه، فإذا صلح المَلِكُ صلحتِ الجنودُ والرَّعيَّة".

ولذلك كان على المسلم أن يهتمَّ بإصلاح قلبه، وأن يهتمَّ بصلاح هذه الأعمالِ التي أمرنا اللهُ -جل وعلا- بها، إن كلَّ عملٍ ظاهرٍ لن يصلحَ إلا إذا صلح أصلُه الذي هو في القلب، وهذه السلسلة التي نبتدئ فيها -بإذن الله- يكونُ التركيزُ فيها وأخذُها والمرجعُ الذي سنرجعُ فيها إليه؛ ما كتبه الإمامُ العلامةُ شمسُ الدينِ ابنُ القيم -رحمه الله تعالى-، وذلك في كتابه مدارج السالكين، الذي تكلم فيه على كتابِ منازل السَّائرين للشيخِ إسماعيلَ الهرويِّ -رحم الله الجميع-؛ وذلك لما لهذا الإمامِ العلامةِ ابنِ القيم -رحمه الله- من اهتمامٍ بهذا البابِ العظيمِ بابِ أعمالِ القلوب؛ فإنَّه كما لقَّبهُ بعضُ

العلماءِ بأنَّهُ طبيبُ القلوب؛ لذلك أغلبُ ما سيُقرَأُ ويُعلَّقُ عليه ويُشرَحُ سيكونُ من كتابِهِ مدارجِ السَّالكين، ويُؤخَذُ منه -بإذن الله- أمورٌ باختصار.

فأولُ عملٍ نأخذُهُ وأولُ مرتبةٍ من أعمالِ القلوب نفتتحُ بها هي: الإخلاصُ، نسأل الله -جل وعلا- أن نكونَ من المخلصين، وأن يُبعِدَ عنا الرياءَ، قال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة البينة: ٥]، وقال الله -جل وعلا-: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [سورة الزمر: ٢-٣]، وقال لنبيِّهِ ﷺ: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ} [سورة الزمر: ١٤-١٥]، وقالَ له كذلك: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)} [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وكذلكَ قالَ الله -جل وعلا-: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الملك: ٢].

قال الفضيلُ بنُ عياض -رحمه الله-: "هو أخلصُهُ وأصوبُهُ"، يعني: أيُّكُمْ أحسنُ عملًا؟ العملُ الحسنُ هو أخلصُهُ وأصوبُه، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُه وأصوبُه؟ فقال: "إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبَل؛ حتَّى يكونَ خالصًا صوابًا"، والخالصُ أن يكونَ لله، والصَّوابُ أن يكونَ على السنَّة، ثمَّ قرأ قولَ الله -جل وعلا-: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)} [سورة الكهف].

إذًا مسألةُ الإخلاصِ ومنزلةُ الإخلاص وهذا العملُ العظيمُ الذي تُبنَى عليه الأعمالُ جميعًا؛ أكثر اللهُ -جل وعلا- من الأمرِ به في القرآن، وأكثر النبي ﷺ كذلك من ذكره في السُّنة، وبيَّن الله -جل وعلا- أن من لم يأتِ به فإن عملَه هَبَاءٌ منثور، كما قال الله -جل وعلا-: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)} [سورة الفرقان]، يعني: الأعمالَ التي لم يتوفَّرْ فيها شرطُ الإخلاص، ولا شرطُ المتابعةِ للنبي ﷺ في العمل.




وبيَّن النبي ﷺ كذلك أن العمل إذا كان فيه إخلاصٌ زاد الإنسانُ به خيرًا، فقال ﷺ: (إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ، فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً)[١].

وكذلك جاء في الصحيح[٢] من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: (ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ).

(لَا يُغِلُّ) يعني: لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحملُ الغلَّ مع هذه الثلاث، بل هذه الثلاثُ تنفي عنه الغلَّ، وتنقِّيهِ منه، وتخرجُهُ عنه.

وكذلك سُئِلَ النبي ﷺ عن الرجل يقاتلُ رياءً، ويقاتلُ شجاعةً، ويقاتلُ حميةً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ)[٣].

يعني: الإخلاصَ، وأن يكونَ في سبيل الله، وإن تعددتِ الأسماءُ والمسمَّياتُ، ولم يقل: "كلُّ ذلك رياءٌ"، بل بيَّن لهم النبي ﷺ الطريقَ الصحيحَ الذي هو أن يكون الجهادُ في سبيلِ الله، وكذلكَ كلُّ عمل.

وأخبر كذلك النبي ﷺ أن أول ثلاثة تُسعَّرُ بهم النار: قارئُ القرآن، والمجاهدُ، والمتصدِّقُ بماله، الَّذينَ فعلوا ذلك ليقال: فلانٌ قارئ، وفلانٌ شجاع، وفلانٌ متصدقٌ، ولم تكن أعمالُهم خالصةً لله -جل وعلا-؛ ولذلك عاقبهم الله أعظمَ عقاب؛ لأنهم عملوا بأعظمِ أعمال، لكنهم لم يعملوها لله -جل وعلا-.

ولذلك الله -جل وعلا- يغارُ، وأعظم غيرته أن ينتهك الإنسانُ محارمَ الله -جل وعلا-، ومِن أعظم انتهاك محارم الله -جل وعلا- أن يُشرِكَ الإنسانُ في عملِهِ وإرادتِهِ غيرَ الله -جل وعلا-، كما جاء في الحديثِ القدسيِّ أنَّ الله -جل وعلا- قال: {أنَا أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَن

---

[١] متفق عليه.

[٢] لم يخرجه البخاري ومسلم. وإنما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والطبراني في الأوسط وابن حبان. حسنه ابن تيمية والترمذي.

[٣] رواه مسلم.

الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا -يعني: أيَّ عملٍ، هو نكرةٌ في سياقِ شرط- أشرك فيه معي غيري؛ فهو للَّذي أشركَ، وأنا منهُ بريءٌ}[١].

فإن هذا العمل الذي يعملُهُ لغير الله -جل وعلا-؛ لن يكون لله -جل وعلا- منه شيء، بل سيذهبُ كلُّه لمن أراد منهُ العمل؛ لأن الله -جل وعلا- لا يقبل الشركةَ في أعمال العبد، بل على العبدِ أن يُوحِّدَ القصد والطلب لله -جل وعلا-؛ ولذلك قال النبي ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)[٢]، وبيَّن الله -جل وعلا- أنه: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ} [سورة الحج: ٣٧].

إذًا هذه المرتبة العظيمة والمنزلة العظيمة التي هي الإخلاص؛ حريٌّ بالعبد أن يهتمَّ بها، وأن يُنقِّيَ قلبَهُ دائمًا من الرِّياءِ ومن الحسدِ ومن الغِلِّ، ومن أعظم ذلك كلِّه الَّذي هو الشِّرك.

الإخلاصُ بعضُ العلماءِ شَبَّهَهُ بالصِّدق، ولكنَّ الصحيح أن الصدق هو أصلُ الإخلاص، فإذا صَدَقَ العبدُ مع الله -جل وعلا-؛ أخلصَ له؛ ولذلك قالَ هنا: وقد تنوَّعتْ عباراتُهم في الإخلاص والصدق، والقصدُ واحدٌ، فقيل: هو إفرادُ الحقِّ سبحانه بالقصد في الطاعة، يعني: الإخلاصَ، وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وقيل: التوقِّي من ملاحظة الخلقِ حتَّى عن نفسِه، يعني: أن لا ينظر الإنسان في عمله إلى الخلق، أي: لا يطلبُ منهم ممدحةً ولا مذمةً.

وأمَّا الصدق؛ فالتنقِّي من مطالعة النفس، فالمُخلِصُ لا رياءَ له، والصادقُ لا إعجابَ له، يعني: بعمله، ولا يتم الإخلاصُ إلا بصدق، ولا الصدقُ إلا بإخلاص، ولا يتمَّانِ إلا بصبر، وهذه كلمةٌ عظيمةٌ جدًّا: أن الإخلاص لا يتم إلا بالصدق، لا بدَّ للإنسان أن يكونَ صادقًا مع نفسِه ومع الله -جل وعلا- حتَّى يكونَ مُخلِصًا، ولا يتم

[١] رواه مسلم بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه ابن ماجه وابن حبان بلفظ مقارب.

[٢] رواه مسلم.

كذلك الصدقُ إلا بوجود الإخلاص، يعني: أن الإنسان لن يكون صادقًا إلا إذا كان مُخلِصًا، وهذان العملان لن يتمَّا إلا بالصَّبرِ لله -جل وعلا-.

وقيل: من شَهِدَ في إخلاصِهِ الإخلاصَ؛ احتاج إخلاصُهُ إلى إخلاصٍ، فنقصانُ كل مخلصٍ في إخلاصِهِ بقدرِ رؤيةِ إخلاصِه، يعني: إذا قال: "أنا أخلصتُ لله"؛ فإنه قد نظر إلى ريائه، فإذا سقط عن نفسِهِ رؤيةُ الإخلاص؛ صار مُخْلِصًا مُخْلَصًا أخلصَهُ الله -جل وعلا-.

وكذلك مِنْ تعريفاتِ الإخلاصِ التي ذكرها أهل العلم، وكلُّها ترجعُ إلى مصبٍّ واحدٍ وإلى منبعٍ واحدٍ ومفهومٍ واحد، وهي إفراد الله -جل وعلا- بالقصد، كما ذَكَر، ولكن هذه التعابير المختلفة تنبئ عن سعة هذا المعنى العظيم، وهذا العملِ العظيمِ الذي هو أساسٌ ومن أعمالِ القلوب، قال: الإخلاصُ استواء أعمالِ العبد في الظاهرِ والباطن، يعني: أن يكون عمل العبد في الظاهر كعمله في الباطن، والرياءُ أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه، والصدقُ في الإخلاصِ أن يكونَ باطنه أعمرَ من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزيَّن للناس بما ليس فيه؛ سقط من عين الله -جل وعلا-، ومِنْ كلامِ الفضيلِ -رحمه الله-: "تركُ العملِ من أجلِ الناسِ رياءٌ، والعملُ من أجل الناس شركٌ، والإخلاصُ أن يُعَافِيَكَ اللهُ منهما".

ثم ذكر -رحمه الله- أن للإخلاصِ مراتب، فمن تلك المراتب -**الدرجة الأولى**- إخراج رؤيةِ العمل عن العامل، والخلاصُ مِنْ طلبٍ بالعمل، فالعامل يَظهَر له ويتعرضُ له في عمله ثلاثُ آفات: رؤيتُه للعمل، وملاحظتُه، وطلبُ العوض عليه، ورضاهُ به، وسكونُه إليه.

رؤيتُه يعني: أنه ينظرُ إلى نفسِه وإلى عملِه، وأنه يطلبُ عوضًا عن ذلك العمل، فلا يكونُ عمله لله إنَّما للأجر، ورضاهُ به يعني: أن يرضى عن عملِه، وكلُّ هذهِ الآفاتِ الثلاثِ لا تعينُ على أن يكون الإنسانُ مخلصًا لله -جل وعلا-.




ولذلك قال هنا: ففي هذهِ الدرجة الأولى التي هي إخراجُ رؤيةِ العملِ عن العمل، والخلاصُ من طلبٍ بالعمل، يعني: أن لا يطلبَ شيئًا على عمله، وأن لا يرى عملًا في عمله، يعني: دائمًا يستحقرُ نفسَه، وينظرُ إلى نفسِه بالدُّون، وفي عملِه بالتَّقصير.

قال: فالذي يخلِّصُه من رؤيةِ عملِه؛ مشاهدتُهُ لمنَّة الله عليه وفضلِهِ وتوفيقِه، وأنَّه بالله لا بنفسِه، وأنه إنما أوجب عملَهُ مشيئةُ اللهِ لا مشيئتُهُ هو.

يعني: أن ينظرَ إلى ما أنعم الله -جل وعلا- عليه ثمَّ ينظرَ إلى عملِه؛ فسيشاهدُ أن نعمةَ الله ومنَّتَه أعظمُ من عمله، فسيستحقرُ نفسَهُ ولن يرى إلى نفسِه، فينظرُ أن المحرِّكَ له غيرُه، وأنه لو خُلِّيَ بينه وبين نفسِه؛ لم يكنْ من فعلِهِ الصالح شيءٌ البتة، بل هو من الله -جل وعلا-.

فإن النفس جاهلةٌ ظالمةٌ، طبعُها الكسلُ وإيثارُ الشهواتِ والبطالة، وهي منبعُ كل شرٍّ ومأوى كل سوء، فالخير الذي يصدرُ منها إنما هو مِنَ اللهِ وبه، لا مِنَ العبدِ ولا بِه، يعني: أن العبد لا يملكُ من ذلك شيئًا؛ لذلك قال الله -جل وعلا-: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} [سورة النور: ٢١]، وقال أهلُ الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا} [سورة الأعراف: ٤٣]، وقال -تبارك وتعالى- لرسوله ﷺ: {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)} [سورة الإسراء]، وقال: {وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [سورة الحجرات: ٧]، فكلُّ خيرٍ في العبد فهو مجردُ فضلِ الله ومنَّتِه وإحسانِه ونعمتِه.

أمَّا الذي يُخلِّصُ العبدَ من طلب العوض على العمل؛ فعلمه بأنه عبدٌ محض، وأنه لا يستحق على خدمته شيئًا؛ إذ هو يخدم الله -جل وعلا- بمقتضى العبودية.

وأما ما يُخلِّصُه من رضاهُ بعمله؛ فهو أمران:

مطالعةُ عيوبه وآفاته وتقصيرِهِ في نفسِه، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان؛ فقلَّ عملٌ من الأعمال إلا وللشيطانِ فيه نصيبٌ.





وأما الأمرُ الثاني: فعِلْمُهُ بما يستحقه ربُّه -جل وعلا- من حقوقٍ وعبوديةٍ وآدابِهَا الظاهرةِ والباطنةِ وشروطِها، وأن العبدَ أضعفُ وأعجزُ وأقلُّ من أن يُوفِيَهَا حقَّها، وأن يرضيَ بها ربَّه؛ فالعارفُ لا يرضى بشيءٍ من عملِه لربه، ولا يرضي نفسَه لله طرفةَ عين، ويستحيي من مقابلةِ الله بعمله؛ فسوءُ ظنه بنفسِه وعملِه، وبغضُه لها، وكراهتُه لأنفاسِه وصعودها إلى الله؛ يحولُ بينه وبين الرضا بعملِه والرضا عن نفسِه.

**أمَّا الدرجةُ الأخرى**: فهي الخجلُ من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد، أن الإنسانَ يخجلُ من عملِهِ وشدةِ حيائه من الله؛ لأنَّه لم ير ذلك العملَ صالحًا، {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)} [سورة المؤمنون]، كما قال الله -جل وعلا-، فقال النبي ﷺ: (هُوَ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ -جل وعلا-)[١]، فالمؤمنُ جمع إحسانًا في مخافةٍ وسوءِ ظنٍّ بنفسِه، والمغرورُ حَسُنَ ظنه بنفسِه مع إساءتِه في العمل.

فهذه الدرجاتُ من الصدقِ والإخلاصِ التي ذكرها -رحمه الله-: تُبيِّنُ أهمية هذا العمل العظيمِ الذي هو الإخلاص، ولذلك ينبغي للإنسان المؤمن المسلم أن يعتنيَ بهذا العملِ الذي هو الإخلاصُ؛ فإن الإنسان إذا عدم الإخلاصَ وعدم الصدق؛ فإنه قد ضاع عن الطَّريق؛ فإن أركانَ السيرِ في الطريقِ توحيدُ المطلوبِ الذي هو الإخلاصُ، وتوحيدُ الطلبِ الذي هو الصدقُ، وهذان لا يُثمِرَانِ إلا بالاستسلامِ المحضِ للمتابعةِ لله -جل وعلا-، فإن من اجتمعتْ عنده هذه الثلاثةُ؛ اجتمعتْ عندَهُ أركان السيرِ إلى الله -جل وعلا-.

ونختمُ على هذا، وصلى الله وسلم على محمَّد، وعلى آله وصحبِهِ أجمعين، ونلتقي في الدَّرسِ القادمِ والحلقة القادمة.

---

[١] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وضعفه الأرنؤوط.




# الحلقة الثانية: الصدق

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ فمرحبًا بكم في هذهِ الحلقةِ الثانية، والدَّرسِ الثاني من سلسلةِ "أعمال القلوب".

والعملُ والدرجةُ التي ستكونُ معنا اليوم في أعمال القلوب هي منزلةُ الصدقِ وعملُ الصدق؛ فمنزلة الصدق هي منزلةُ القومِ الأعظمِ الذي منه تُنشَأ جميعُ منازل السالكين، والطريقُ الأقومُ الذي من لم يسرْ عليه فهو من المنقطعينَ الهالكين، وبه تميز أهلُ النفاق من أهل الإيمان، وسكَّانُ الجنانِ من أهل النيران، وهو سيفُ الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه، ولا وَاجَهَ باطلًا إلا أرداهُ وصرعَه، مَنْ صال به لم تُرَدَّ صولتُه، ومن نطق به علتْ على الخصومِ كلمتُه.

فهو روحُ الأعمال ومحكُّ الأحوال، والحاملُ على اقتحام الأهوال، والبابُ الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمودُ فسطاط اليقين، ودرجةٌ تاليةٌ لدرجة النبوَّة التي هي أرفعُ درجاتِ العالمين، الله -جل وعلا- قد أمر أهلَ الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المنعَمَ عليهم بالنبيّينَ والصديقين والشُّهداءِ والصالحين؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)} [سورة التوبة]، وقال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [سورة النساء: ٦٩]، فهم الرفيقُ الأعلى، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

وأخبر الله -جل وعلا- أن من صَدَقَهُ فهو خيرٌ له، فقال: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١)} [سورة محمد]، وأخبر اللهُ كذلك عن أهلِ البر، وأثنى عليهم بأحسنِ أعمالِهِمْ من الإيمانِ والإسلامِ والصدقةِ والصبرِ بأنهم أهلُ الصدق، فقال

سبحانه: {وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)} [سورة البقرة]، وهذا صريحٌ في أن الصدقَ بالأعمالِ الظاهرةِ والباطنة، وأن الصدقَ هو مقامُ الإسلامِ والإيمان.

وقد قسَّم اللهُ سبحانه كذلك الناسَ إلى صادقٍ ومنافق، فقال: {لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [سورة الأحزاب: ٢٤]، فالصادقُ يجزيهِ الله -جل وعلا- على صدقه؛ لأنه قد صَدَقَ الله -سبحانه وتعالى- في عملِهِ وفي قولِهِ وفي اعتقادِه.

أمَّا المنافقُ، فإن الله -جل وعلا- يعاقبُهُ على نفاقه؛ لأنه كَذَبَ على الله -جل وعلا- وكَذَبَ على النَّاس، فأظهر شيئًا خلافَ ما يبطنُه؛ فإن الإيمانَ أساسُه الصدقُ، والنفاقَ أساسُه الكذبُ، فلا يجتمعُ كذبٌ وإيمانٌ إلا وأحدُهما محاربٌ للآخر.

وأخبر -كذلك- اللهُ -جل وعلا- عن هذه المنزلة العظيمة منزلةِ الصدق؛ أن الناس في يومِ القيامة لا ينفعُ العبدَ شيءٌ ولا ينجيهِ شيءٌ من عذاب الله -جل وعلا- إلا صِدْقَه؛ قال سبحانه: {هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًاۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)} [سورة المائدة]، كذلك قال الله -جل وعلا-: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)} [سورة الزمر].

فالذي جاء بالصدق هو مَنْ شأنُهُ الصدقُ في قولِهِ وعملِهِ وحاله، فالصدقُ في القولِ والصدقُ في العملِ والصدقُ في الحال، هذا حالُ الإنسان الصادق مع الله -جل وعلا-.

فالصدقُ في الأقوالِ هو استواءُ اللسان على الأقوالِ كاستواءِ السنبلةِ على ساقِها، والصدقُ في الأعمالِ هو استواءُ الأفعال على الأمرِ والمتابعةِ كاستواءِ الرأسِ على

الجسد، والصدقُ في الأحوالِ هو استواءُ أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغُ الوسعِ وبذلُ الطَّاقة، يعني: استواءَ الظاهرِ مع الباطن، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسبِ كمالِ هذه الأمور فيهِ وقيامِهَا به؛ تكونُ صِدِّيقِيَّتُهُ؛ ولذلك كان أميرُ المؤمنين أبو بكر الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه وأرضاه- ذروةَ سنامِ الصديقية، سُمِّي الصديق على الإطلاق.

والصديقُ أبلغُ من الصَّدوق، والصَّدوقُ أبلغُ من الصادق؛ فإن أعلى مراتبِ الصدقِ مرتبةُ الصديقية؛ فهي كمالُ الانقيادِ للرسول ﷺ مع كمالِ الإخلاصِ للمُرْسِلِ -سبحانه وتعالى-.

وقد أمر الله -جل وعلا- رسوله أن يسأله أن يجعلَ مدخله ومخرجه مخرجَ صدق، قال الله -جل وعلا-: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)} [سورة الإسراء].

وأخبر كذلك عن خليلِهِ إبراهيمَ -عليه الصلاة والسلام- أن يسألَهُ أن يجعلَ له لسانَ صدقٍ في الآخرين، قال الله -جل وعلا-: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)} [سورة الشعراء].

وكذلك بَشَّرَ عبادَه بأن لهم عندَهُ قدمَ صدقٍ ومقعدَ صدق، فقال: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} [سورة يونس: ٢]، وكذلك قالَ سبحانه: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)} [سورة القمر].

فها هنا خمسةُ أمورٍ وأشياء: مدخلُ الصدقِ ومخرجُ الصدق ولسانُ الصدقِ وقدمُ الصدقِ ومقعدُ الصدق، فهذه حقيقةُ الصدق التي من أتى بها جميعًا وكتبها الله -جل وعلا- له؛ فإنه سيكونُ من الصِّدِّيقينَ مِنْ أمثال أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، فحقيقةُ الصدقِ بهذه الأشياء هي الحقُّ الثابت المتصلُ بالله، الموصلُ إلى الله.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخولُه وخروجُه حقًّا ثابتًا لله -جل وعلا- وفي مرضاتِهِ بالظَّفرِ بالبُغْيَةِ وحصولِ المطلوب، ضد مخرجِ الكذب ومدخلِهِ الذي لا غايةَ له يُوصِلُ إليها، ولا له ساقٌ ثابتةٌ يقومُ عليها، كمخرجِ أعدائِهِ يومَ بدر، ومخرجُ الصدق كمخرجِهِ ﷺ هو وأصحابِهِ في تلك الغزوة.

مدخلُ الصدق يعني: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا لله، فيكونَ اللهُ -جل وعلا- يجعلُ له كل مكانٍ فيه صدقٌ، فيجعله -سبحانه وتعالى- في ذلك المكان، كما كانَ مدخلُه ﷺ للمدينة كان مدخلَ صدقٍ بالله ولله، وابتغاءً لمرضاة الله؛ ولذلك نصرَهُ اللهُ -جل وعلا- وأيَّدهُ وأعزَّهُ -سبحانه وتعالى- في تلك الدَّار، وأدرك ما طلبهُ في الدُّنيا والآخرة.

بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب؛ فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادَّةً لله ورسوله، فلم يتصلْ به إلا الخذلانُ والبوار، فهزمهُمُ الله -جل وعلا- في ذلك اليوم، وكفى المؤمنينَ سبحانه القتال.

فكلُّ مدخلٍ كان معهم ومخرجٍ كان بالله ولله، يعني: الصحابة، فصاحبُهُ ضامنٌ على الله، فهو مدخلُ صدقٍ ومخرجُ صدق، وكان بعضُ السَّلفِ إذا خرج من داره رفع رأسَه إلى السماء وقال: "اللهم إني أعوذُ بك أن أَخرُجَ مخرجًا لا أكونُ فيه ضامنًا عليك"، يعني: ألا يكونَ ذلك المخرجُ مخرجَ صدق، وما خرج أحدٌ من بيتِه ودخل سوقَهُ أو مدخلًا آخر: إلا بصدق أو بكذب، فمخرجُ كل واحد ومدخلُه لا يعدو الصدقَ والكذب، فليحرص الإنسانُ أن يكون مدخلُه مدخلَ صدق، وأن يكونَ مخرجُه مخرجَ صدق، يعني: أن يكون الله -جل وعلا- يرضى عن هذا.

وأمَّا لسانُ الصدق؛ فهو الثناءُ الحسنُ عليه ﷺ من سائر الأممِ السابقة ليس الثناء بالكذب، كما قال الله -جل وعلا-: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)} [سورة مريم]، يعني: عن إبراهيم -عليه السلام- وذريتِه، فالمرادُ باللسان هنا: الثناءُ الحسن.

وأمَّا قدم الصدق؛ ففُسِّرَ بالجنَّة، وفُسِّر بمحمَّد ﷺ، وفُسِّر بالأعمال الصَّالحة، وحقيقة "القدم" ما قدَّموهُ وما يقدمون عليه يومَ القيامة، وهم قدَّموا الأعمالَ والإيمانَ بمحمد ﷺ، فمن فسَّره بها أراد ما يقدمون عليه، ومن فسَّرهُ بالأعمال وبالنبي ﷺ؛ فلأنهم قدَّموها، وقدَّموا الإيمانَ به بين أيديهم، فالثلاثةُ قدمُ صدق: ما يقدمون عليه، وإيمانُهم بالنبي ﷺ، وكذلك أعمالُهم الصالحةُ التي قدَّموها.

أمَّا مقعدُ الصدق؛ فهو الجنَّة عند الرَّبِّ -سبحانه وتعالى-، ووصفُ ذلك كلِّه بالصدقِ مستلزمٌ ثبوتَه واستقرارَه، وأنه حقٌّ ودوامه ونفعه وكمال عائدته؛ فإنه متصلٌ بالحقِّ سبحانه، كائنٌ به وله، فهو صدقٌ غير كذب، وحقٌّ غير باطل، ودائمٌ غير زائل، ونافعٌ غير ضال، وما للباطلِ ومتعلقاتِهِ إليه سبيلٌ ولا مدخل.

ومِنْ علامة الصدق: طمأنينةُ القلب، ومن علامةِ الكذب: حصولُ الريبة، وقد قال النبي ﷺ: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)[١]، فجعل الصدقَ مفتاحَ الصديقيَّةِ ومبدأها، وهي غايتُه، فلا ينالُ درجتَها كاذبٌ البتة، لا في قوله ولا في عمله ولا في حاله، ولا سيما كاذبٌ على الله في أسمائه وصفاته، ونفيِ ما أثبته أو إثباتِ ما نفاهُ عن نفسه، فليس في هؤلاءِ صِدِّيقٌ أبدًا.

وكذلك الكذبُ عليه في دينِهِ وشرعِهِ، بتحليلِ ما حرَّمَهُ وتحريمِ ما لم يحرِّمه، وإسقاطِ ما أوجبهُ وإيجابِ ما لم يوجبه، وكراهةِ ما أحبَّهُ واستحبابِ ما لم يحبَّه، كلُّ ذلك منافٍ للصديقيَّة.

إذًا عرفنا منزلة الصدق وأهميتَها عند الله -جل وعلا-، وأنها مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالمنزلة السابقة التي أخذناها الَّتي هي الإخلاصُ، وكما قال النبي ﷺ: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ)، فيعتني المسلمُ أن يكون عملُه صادقًا لله، وأن يكون لسانُه صادقًا لله، وأن

---

[١] رواه البخاري.





يكون قلبُه صادقًا لله -جل وعلا-؛ فإن الصدقَ ليس متعلَّقَهُ اللسانُ فقط، بل متعلقُهُ أعمالُ القلب، كما سُمِّيَ هذا الدَّرسُ أنَّه أعمالُ القلوب، فإن صدقَ القلبِ من أهمِّ الأمور؛ فإن الإنسانَ لو صَدَقَ قلبُه؛ لَصَدَقَ كلُّ شيءٍ من حركاتِهِ وسكناتِه.

ونختمُ بهذا، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين، على أن نأملَ لقاءكم في الدَّرسِ القادمِ والحلقةِ القادمة.

# الحلقة الثالثة: الصدق (٢)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبِهِ أجمعين؛ أمَّا بعد:

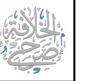
فهذا الدرسُ الثالثُ من السلسلة التي ابتدأناها والتي هي "أعمال القلوب"، قد توقفنا في الدَّرسِ الماضي على عملِ الصدقِ ودرجةِ الصدق، وما زلنا في هذهِ الدرجة العظيمة نسيرُ فيها، ونقرأ كلام شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله- مع بعض التعليق اليسير عليه، نسأل الله -جل وعلا- أن ينفعنا، وأن ينفع السَّامعينَ جميعًا.

الصدقُ له ثلاثُ درجات، **أمَّا الدرجة الأولى التي ذكرها**، فقال: صدقُ القصد، وبه يصح الدخولُ في هذا الشأن، ويتلافى به كلُّ تفريط، ويتداركُ به كلُّ فائت، ويعمرُ به كلُّ خراب، وعلامة هذا الصادق أن لا يتحمَّلَ داعيةً تدعو إلى نقضِ عهد، ولا يصبرَ على صحبة ضد، ولا يقعدَ عن الجدِّ بحال.

فهذه كلُّها من درجات الصدق التي يذكرُها هنا، والمقصودُ بهذا أوَّلًا: صدقُ القصد، يعني: كمال العزم وقوَّة الإرادة، بأن يكونَ قلبُه صادقًا في قصده، داعيًا إلى الصدقِ في السُّلوك، وله ميلٌ شديدٌ في صحة توجهه إلى الله -جل وعلا-؛ فقصده إلى الله قصدٌ صادقٌ لا يمازجُهُ رياءٌ ولا فتورٌ، ولا يكون فيه قسمة بحال.

وهذا النوع من أنواع الصدق لا يصحُّ الدخولُ في شأن السفر إلى الله -جل وعلا- ولا في عبادة الله -جل وعلا- إلا به، ولا يمكنُ للعبد أن يكونَ عملُهُ لله -جل وعلا- إلا بِه، أن يكونَ قصده صادقًا مع الله -جل وعلا-؛ ولذلك قال: وبه يصح الدخولُ في هذا الشأن.

وأمَّا قوله: ويتلافى به كل تفريط؛ فإن التفريطَ في هذا الصدق، والصدقُ مُذهِبٌ لهذا التفريط؛ فإنه حاملٌ على كل سبب يُنَالُ به الوصول، وقَطَعَ كلَّ سببٍ يحولُ بينه وبينه، يعني: أن الصدقَ في هذه الدرجة يمنعُ التفريط، فلا يتركُ فرصةً تفوتُه، يعني: أن





المفرِّط يتركُ ما أمره الله -جل وعلا- به أو يُقصِّرُ في شيء من ذلك، فأمَّا مَن صَدَقَ مع الله -جل وعلا- في القصد، وحتَّى ذهب منه التفريط؛ فإن المفرِّط قد ضاع منه الكثير، أمَّا الصادقُ فإنه لا يفوتُهُ شيءٌ من الأعمال الصالحة، فهو يبحثُ عنها ويتداركها أينما كانتْ وحيثما وُجِدَت.

فيصلحُ من قلبِهِ ما مزَّقتْهُ يدُ الغفلةِ والشهوة، هذا هو الصدقُ، ويعمر منه ما خرَّبتْهُ يدُ البطالة، ويوقدُ ما أطفأتْهُ أهويةُ النفس، ويَلمُّ منه ما شعَّثتْهُ يدُ التفريطِ والإضاعة، فالصادقُ مع الله -جل وعلا- هو الذي يكونُ عمله لله -سبحانه وتعالى- ولا يكون مفرِّطًا، فلا يكسلُ في عبادة الله -جل وعلا-؛ لأن الكسل صفة المنافق، والنفاقُ أصلُه من الكذب، أمَّا الصادقُ فإنه لا يكسلُ عما أمره الله -جل وعلا-، بل يبحثُ عن جميع الأعمال، لا يكونُ من الذين يتكاسلونَ عن الصلاة وعن الأعمال الصالحة.

وعلامة هذا الصادق: ألا يتحملَ داعيةً تدعو إلى نقض عهد، يعني: هو الذي قد انجذبتْ روحُه كلُّها إلى إرادة الله وطلبِهِ والسيرِ إليه والاستعدادِ إلى لقائه؛ فهو منجذبٌ إلى الله -سبحانه وتعالى- ذاهبٌ إليه سَاعٍ إليه، ومن تكونُ هذهِ حالَه؛ لا يحتملُ سببًا يدعوه إلى نقضِ عهده مع الله -جل وعلا- بوجه؛ لأن نقض العهد من صفات المنافقين، والمنافقون ليسوا من أهل الصدق.

ولذلك فليتفطنِ المسلمُ إلى هذا، إلى أن الصدقَ والنفاقَ لا يجتمعان؛ فالمنافقُ كاذبٌ وخادع، أمَّا الصادقُ فإنه من أهل الإيمان؛ ولذلك النبي ﷺ لمَّا سُئِل: "هل يكونُ المؤمنُ كذَّابًا؟"، قال: (لَا)[١].

وقولُه: ولا يصبرُ على صحبةِ ضدٍّ، الضدُّ عند القوم -يعني: عند صاحب هذا الكتاب- هم أهل الغفلة، فهو لا يصبر على صحبة أهل الغفلة الذين يتكاسلونَ عن الأعمال ويتركونَها، أو يضيِّعون ما أمر الله -جل وعلا- به؛ فهم قطاع طريق القلب إلى

[١] رواه مالك في الموطأ، والبيهقي في شعب الإيمان. قال الحافظ العراقي: رواه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء. قال التبريزي في المشكاة: مرسل.

الله، وأضرُّ شيء على الصادق صحبتُهم؛ فإن صحبة أهل الكسل لا تنفع، أمَّا صحبة أهل الخير فهي المطلوبة.

ولذلك الله -جل وعلا- شبَّه المؤمنين وأمرهم أنهم هم الذين يتواصَونَ بالحق، يعني: يوصي بعضُهم بعضًا، أمَّا أهل الغفلة؛ فإنهم لا يوصي بعضُهم بعضًا بالحق ولا بالصبر، فهو الصادقُ لا تصبر نفسُه على الجلوس معهم أبدًا، إلا إذا جمعتْ بينه وبينهم ضرورةٌ، وتكون صحبتُهم له في تلك الحال بقالبه وشَبَحِه دون قلبه وروحه؛ فإن هذا لمَّا استحكمتِ الغفلةُ عليه كما استحكم الصدقُ في الصادق؛ أحسَّتْ روحُه بالأجنبية التي بينه وبينهم بالمضادَّة، فاشتدتِ النفرةُ وقوي الهرب.

وبحسب هذه الأجنبية وإحساسِ الصادقِ بها؛ تكونُ نفرتُه وهربُه عن الأضداد؛ لأن الأرواح روحٌ مجندةٌ، ما تعارفَ منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف؛ فالأرواحُ عند الله -جل وعلا- بحسب العمل الذي يكون عليه الناس، فإن كانوا صادقين ائتلفتْ أرواحُهم وائتلفت أنفسُهم، وإن كانوا غير ذلك؛ فإنه تحصُلُ بينهم الفرقة؛ ولذلك لمَّا كان المشركون يعبدونَ أكثرَ من إله؛ كانتْ بينهم النفرة والفرقة الكثيرة، لكن أهل التوحيد لمَّا كانوا يعبدونَ إلهًا واحدًا -سبحانه وتعالى-؛ لم تكن بينهم تلك الفرقةُ وتلك النفرة.

فكما قال هنا: اشتدتِ النفرةُ وقوي الهربُ، وبحسب هذه الأجنبيَّةِ وإحساسِ الصادق بها؛ تكونُ نفرتُه وهربُه من الأضداد؛ فإن هذا الضد إنْ نطق؛ أحسَّ قلبُ الصادق أنه نطق بلسان الغفلةِ والرياءِ والكبرِ وطلب الجاه ولو كان ذاكرًا أو قارئًا أو مصلِّيًا أو حاجًّا أو غيرَ ذلك، فنفر قلبُه منه، وإنْ صَمَتَ؛ أحسَّ قلبه أنه صمت على غير حضورٍ وجمعيةٍ على الله -سبحانه وتعالى- وإقبالٍ عليه؛ فإن قلب الصادق قويُّ الإحساس، كما أن نظرَه كذلك وحسَّه كذلك قويُّ النظر وقويُّ الملاحظة لغيره، فينفرُ من الغافلين، والإنسانُ مأمورٌ أن يكون مع الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا، ويبتعدَ عن الذين يكسلونَ ويتغافلونَ عن الأعمال التي أمرهم الله -جل وعلا- بها.

**أمَّا الدرجة الثانية للصدق**؛ فأن لا يتمنى الحياةَ إلا للحق، ولا يشهدَ من نفسه إلا أثرَ النقصان، ولا يلتفتَ إلى ترفيه الرُّخص، يعني: أن لا يحبَّ أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه -وهو الله سبحانه وتعالى-، ويقوم بعبوديته، وإلا لم يكنْ للحياة طعمٌ ولا معنى، ويستكثرَ من الأسباب التي تقرِّبه إليه وتدنيه منه، لا لعلَّة من عللِ الدُّنيا، ولا لشهوةٍ من شهواتها.

كما قال عمرُ بنُ الخطَّاب -رضي الله عنه-: "لولا ثلاثٌ لما أحببتُ البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدةُ الليل، ومجالسةُ أقوامٍ ينتقون أطايبَ الكَلِمِ كما يُنتَقَى أطايبُ التَّمر"، يعني: لولا هذه الثلاثُ التي هي من الأعمال لله -جل وعلا- ومن أعمال البر والخير؛ لم يتمنَّ الحياة، بل تمنى أن يكونَ ميتًا في ذلك؛ لأن الحياة لا يكون لها معنى وعبرةٌ إلا إذا كانتْ في سبيل الله -جل وعلا-، وما لم تكنْ كذلك؛ فإنها والموتَ أشبهُ، والموتُ أفضلُ منها، فهو يريدُ هنا -رضي الله عنه- الجهاد والصلاة والعلم النافع، وهذه هي درجاتُ الفضائل.

وقولُه: ولا يشهدُ من نفسه إلا أثرَ النقصان، يعني: لا يرى نفسَه إلا مقصِّرًا، والموجبُ لهذه الرُّؤية استعظامُ مطلوبِهِ واستصغارُ نفسِه، فها هنا نظران من جهتين: أنه ينظر إلى الله -جل وعلا- على أنه عظيمٌ، وينظرُ إلى نفسِه على أنها نفسٌ حقيرةٌ، ويبحث عن عيوب نفسِه وينظر في نفسه، فمن عرف الله وعرف نفسه؛ لم يرَ نفسَه إلا بعين النقصان، أمَّا من نظر إلى نفسِه ولم ينظر إلى الله -جل وعلا-؛ تكبَّرَ وتغطرس، كما حصل لإبليس -عليه لعنة الله-.

وأمَّا قولُه: ولا يلتفتُ إلى ترفيه الرُّخَص؛ فلأنه لكمال صدقه وقوة إرادته وطلبه للتقدُّم؛ يحمل نفسه على العزائم، ولا يلتفتُ إلى الرفاهية التي في الرخص، وهذا لا بدَّ فيه من التفصيل؛ فإن الصادق يعمل على رضا الحق تعالى ومحابِّه، فإذا كانتِ الرخص أحبَّ إلى الله تعالى من العزائم؛ كان الالتفاتُ إلى ترفيهِا وهو عينُ صدقِه، فإذا أفطر في السَّفر، وقصر وجمع بين الصَّلاتينِ عند الحاجة، وخفَّف الصلاة عند الشُّغل، ونحو

ذلك من الرخصِ التي يحبُّ الله تعالى أن يُؤخَذ بها؛ فهذا الالتفاتُ إلى ترفيهِا لا ينافي الصدق، يعني: أن الصادق لا يأخذ بترفيه الرُّخص، والمقصودُ بذلك أنه يأخذُ بالرخصة كما يشاءُ في الوقتِ الذي يشاء، ولا يقيِّدُها بالشَّرع، أمَّا إذا تقيدتْ بالشرع؛ فإن الله -جل وعلا- يحبُّ للعبد أن يأخذ رُخَصَهُ في ذلك.

**وأمَّا الدرجة الثالثة**: فالصدقُ في معرفة الصدق؛ فإن الصدق لا يستقيمُ إلا على حرفٍ واحد، وهو أن يتفقَ رضا الحق بعمل العبد أو حالِهِ ووقتِه، وإيقانِ العبدِ وقصدِه، بأن يكون العبدُ راضيًا مرضيًا، فأعمالُه مرضيةٌ لله، وأحوالُه صادقةٌ، وقصدُه مستقيمٌ، وإن كانَ العبد كُسِيَ ثوبًا معارًا؛ فأحسنُ أعماله ذنبٌ، وأصدقُ أحواله زورٌ، وأصفى قصودِهِ قعودٌ، يعني: أن الصدقَ المتحققَ إنما يحصلُ لمن صَدَقَ في معرفة الصدق، فكأنه قال: لا يحصُلُ حال الصدق إلا بعد معرفة علم الصدق.

والصدقُ حقيقتُه: أن يتفق رضا الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته وإيقانه وقصده؛ فإن العبد إذا صَدَقَ الله؛ رضي الله بعمله وحاله ويقينه وقصده، لا أن رضا الله هو نفسُ الصدق، إنما اللهُ يرضى عن الصَّادقين، وإنما يُعلَمُ الصدقُ بموافقة رضا الله سبحانه عليه، ولكن من أين يعلم العبد أن الله -جل وعلا- قد رضي عنه، وأنَّه صادقٌ في هذا؟ فمِنْ هنا كان الصادقُ مضطرًّا أشدَّ الضرورة إلى متابعة أمر الله -جل وعلا- والتسليمِ للرسول ﷺ في ظاهره وباطنه، والاقتداءِ به، والتعبُّدِ بطاعته في كل حركة وسكون مع إخلاصِ القصدِ لله -جل وعلا-؛ فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلَّا ذلك، وما عدا هذا فقُوتُ النفسِ ومجرَّدُ حظِّها واتباعٌ لأهوائها.

ومن ها هنا يفارقُ الصادقين أكثرُ السالكين، بل يستوحشون في طريقهم، يستوحشون هؤلاءِ في طريقهم -يعني: الصادقين-؛ وذلك لقلة السالكين، إن أكثرَهم -يعني: السالكين- سائرونَ على طُرُقِ أذواقهم، وتجريدِ أنفاسِهم لنفوسهم، ومتابعةِ رسم شيوخِهم، والصادقونَ في وادٍ، وهؤلاءِ في وادٍ آخر.

لكن العبد الصادق يكون راضيًا مرضيًّا، رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، فرضي الله به عبدًا، وأعمالُه إذًا مرضيةٌ لله -جل وعلا-، وأحواله صادقةٌ مع الله، وقصودُهُ مستقيمةٌ لله -جل وعلا- ومُتَابِعَةٌ للنبي ﷺ.

إذًا مرتبة الصدق التي ذكرها الشيخُ هنا -رحمه الله- من أعظم أعمال المؤمن التي ينبغي دائمًا أن يحرصَ عليها، وينبغي دائمًا أن يكون قصدُهُ صادقًا لله، وأن يحرص على ما ذكره؛ فإن الصادق إذا صَدَقَ قلبه كان في غربة، فعليه أن لا يستوحشَ في الطريق؛ فإن طريق الغرباء هي الإخلاصُ والصدق.

وبهذا تكونُ مرتبة الصدق قد انتهت، على أن نأملَ أن نلقاكم في الحلقة القادمة والدرس القادم مع مرتبةٍ أخرى وعملٍ آخر، هذا، وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

# الحلقة الرابعة: الصبر

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فنواصلُ ما ابتدأنا به من الكلام على أعمال القلوب وتهذيبها وتهذيبِ القلوب، وما كتبه الإمامُ العلامة ابن القيم -رحمه الله- من التعليقِ عليه واختصارِه والأخذِ منه؛ فإنه طبيبٌ للقلوب كما وصفه أهلُ العلم.

والدرجة التي ندخل فيها اليومَ ونأخذُها اليوم بإذن الله هي الصبرُ؛ إنه من أعظمِ منازلِ أهل الإيمان، قال الإمام أحمد -رحمه الله-: "الصبرُ في القرآن ذُكِرَ في نحوِ تسعينَ موضعًا"، وهو واجبٌ على كل مؤمنٍ بإجماع أهل العلم، وهو مِنْ نصف الإيمان ومن أسباب النَّجاة؛ لأن الله -جل وعلا- بيَّن أن الصابرين هم الناجون، مع الذين يتواصون بالصدق، والذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وهو مذكورٌ -كما قال هنا- في القرآن على ستة عشر نوعًا؛ الأول: الأمرُ به، نحو قوله -جل وعلا-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [سورة البقرة: ١٥٣]، وقولِ الله -جل وعلا-: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [سورة البقرة: ٤٥]، وقوله سبحانه: {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} [سورة آل عمران: ٢٠٠]، وقوله -جل وعلا-: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [سورة النحل: ١٢٧]، فهذهِ كلُّها أفعالُ أمر: {اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} و {اصْبِرُوا} {وَاصْبِرْ}.

الثَّاني: النهيُ عن ضده، ومعلومٌ عند أهل الأصول أن النهي عن الشيء يستلزمُ الأمرَ بضده، لكن الله -جل وعلا- لأهميَّة هذه العبادةِ العظيمةِ وهذا العملِ العظيمِ الذي هو الصبر؛ جعله الله -سبحانه وتعالى- على كثيرٍ من الطُّرق مذكورًا في القرآن، فمنها: النهيُ عن ضده، قال -جل وعلا-: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}

[سورة الأحقاف: ٣٥]، أن الاستعجال من علامة عدم الصبر، وقولُه -سبحانه وتعالى-: {فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)} [سورة الأنفال]؛ فإن تولية الأدبار تركٌ للصبر والمصابرة، وقولُه -جل وعلا-: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)} [سورة محمد]؛ فإن إبطالها تركُ الصبر على إتمامها، وقولُهُ كذلك: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [سورة آل عمران]؛ فإن الوهنَ من عدم الصبر.

والصورةُ الثالثةُ التي ذُكِرَ فيها الصبرُ بالقرآن: الثناءُ على أهله؛ قوله -جل وعلا-: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ} [سورة آل عمران: ١٧]، وكذلك قولُهُ سبحانه: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)} [سورة البقرة]، فجعل الصابرين من أهل الصدق.

وكذلك أن الله -سبحانه وتعالى- يحبُّ الصابرين كما قال: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)} [سورة آل عمران]، وكذلك -سبحانه وتعالى- مع الصابرين، فهذا مما ذُكِرَ فيه الصبرُ في القرآن؛ أن الله -جل وعلا- يكونُ مع الصابر، وهي معيةٌ خاصةٌ دون المعية العامة، أن الله -جل وعلا- مع كل الخلق، لكنَّ هذه معيةٌ خاصةٌ كما قالَ سبحانه: {وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} [سورة الأنفال]، وقوله: {وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)} [سورة الأنفال]؛ فهذه معية تستلزمُ العلمَ والإحاطةَ والنصرَ والتأييد.

والصورةُ السادسةُ التي ذُكِرَ بها الصبرُ في القرآن: إخبارُه بأن الصبر خيرٌ لأصحابه، كما قال الله -جل وعلا-: {وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)} [سورة النحل]، وقوله: {وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ} [سورة النساء: ٢٥].

وأمَّا الصورةُ السابعةُ؛ فَذِكْرُهُ -سبحانه وتعالى- أن أهل الصبر يُجزَونَ أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون، كما قال: {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)} [سورة النحل].

وكذلك الصورةُ الثامنةُ أنهم يُجزَونَ أوفى الجزاء، وأنَّه أجرُهم بغير حساب، كما قال اللهُ سبحانه: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)} [سورة الزمر].

وأمَّا الصورةُ التاسعةُ؛ فأن البشرى لأهل الصبر، كما قالَ سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)} [سورة البقرة].

وأمَّا الصورةُ العاشرةُ؛ فأن أهلَ النصر هم أهلُ الصبر، كما قال -جل وعلا-: {بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)} [سورة آل عمران]، وكذلك قولُ النبي ﷺ: (وَاعْلَمْ: أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ)[١].

وأمَّا الصورةُ الحاديةُ عشرة؛ فإخباره -سبحانه وتعالى- بأن أهل الصبر هم أهل العزائم، كما قال: {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)} [سورة الشورى].

وأمَّا الصورةُ الثانيةُ عشرة؛ فإخباره -جل وعلا- أنه ما يُلقَّى الأعمالَ الصالحةَ وجزاءَها والحظوظَ العظيمةَ إلا أهلُ الصبر، فيا لها من مرتبة عظيمة! كقوله -جل وعلا-: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)} [سورة القصص]، وقوله -جل وعلا-: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)} [سورة فصلت].

أمَّا الصورةُ الثالثةُ عشرة؛ فإخباره -جل وعلا- أنه إنما ينتفعُ بالآياتِ والعبر أهلُ الصبر، كما قالَ سبحانه لموسى: {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)} [سورة إبراهيم]، وكذلك قولُه: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)} [سورة سبأ].

---

[١] رواه أحمد والحاكم والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في معرفة الصحابة. قال الأرنؤوط: حديث صحيح.




أمَّا الصورةُ الرابعةُ عشرة؛ فإخباره -جل وعلا- بأن الفوزَ المطلوبَ المحبوبَ والنجاةَ من المكروهِ المرهوبِ ودخولَ الجنة؛ إنما يُنَالُ بالصبر، قالَ سبحانه: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)} [سورة الرعد].

أمَّا الصورةُ الخامسةُ عشرة؛ فأن الصبر يورث صاحبَه درجةَ الإمامة، كما قال الله -جل وعلا-: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} أي: بسبب صبرهم، {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [سورة السجدة]؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بالصبرِ واليقين: تنالُ الإمامةُ في الدين".

أمَّا الصورةُ السادسةُ عشرة؛ فاقترانه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله باليقين وبالإيمان وبالتقوى وبالتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة؛ ولهذا كان الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وفي الحديث الصحيح: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)[١]، وكذلك قال النبي ﷺ للمرأة السوداء التي كانتْ تُصرَع، التي سألتْهُ أن يدعو لها، قال لها: (إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ)[٢]، يعني: أن الصبر ثوابه الجنة، وإنَّما يُوفَّى الصابرونَ أجرهم بغير حساب، وكذلك قال النبي ﷺ: (ما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)[٣].

والصبر عرَّفه كثيرٌ من أهل العلم بتعريفاتٍ عدة؛ فهو في اللُّغة: الحبسُ والكفُّ، كما قال -جل وعلا-: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم} [سورة الكهف: ٢٨]، يعني: احبسْ نفسَك معهم، وحقيقةُ الصبر في الشَّرع هي: حبسُ النفس عن الجزع والتسخط، وحبسُ اللسان عن الشكوى، وحبسُ الجوارح عن التشويش، ويكون الصبرُ على

---

[١] رواه مسلم.

[٢] رواه البخاري.

[٣] متفق عليه.

حقيقته هذه، إذا حبس العبدُ نفسَه مع الله -جل وعلا- مع سُنَنِهِ ومع أسمائه وصفاتِهِ وما تقتضيهِ من هُدَى الله -جل وعلا-، ومن الفطرة التي جعلها الله -جل وعلا- في قلب الناس.

وهو على هذا ثلاثةُ أنواع، الذي هو حبسُ النفس عن الجزع والتسخط، يعني: أن لا يجزع ويتسخط على قدر الله، وأن لا يشتكي إلى غير الله، وأن يحبس الجوارح عن التشويش، وهو ثلاثةُ أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على امتحان الله، يعني: على أقداره.

فالأوَّلان اللذان هما الصبرُ على طاعة الله، والصبرُ عن معصية الله؛ صبرٌ على ما يتعلَّقُ بالكسب، والثالثُ صبرٌ على ما لا كسبَ للعبد فيه، أي: الأوَّلُ أن الإنسان يُصبِّرُ نفسَه ويصطبرُ على أن يطيع الله، فيؤدي الطَّاعة وهو صابرٌ مريدُ الله.

وعن معصية الله يعني: أن يحبس نفسَه ألا يعصي الله؛ لأن النفس داعيةٌ إلى الشهوة؛ فلذلك هذه مما يتعلق بكسبِ العبد وعمله، فيستطيعُ الإنسانُ عليه.

أمَّا الثالثةُ التي هي الصَّبرُ على امتحان الله -يعني: على البلاء والابتلاء-؛ فهذا لا كسبَ للعبد فيه، فإذا حلَّت به مصيبةٌ يجبُ عليه أن يصبر؛ لأن الله -جل وعلا- بيَّن أن هذا هو مقام المؤمنين.

وكان يقولُ شيخ الإسلام ابن تيمية: "الصبرُ على أداءِ الطاعاتِ أكملُ من الصبر على اجتنابِ المحرَّمات"، وهذه مسألةٌ فقهيةٌ عظيمةٌ؛ وذلك أن مصلحةَ فعل الطاعة أحبُّ إلى الشَّارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدةَ عدم الطاعة أبغضُ إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية، يعني: أنَّه اجتمع للإنسان معصيةٌ وطاعةٌ أفضلُ من أن لا يطيع الله ولا يعصيَه، أو أن يعصيَهُ ولا يطيعَه؛ ولذلك كان الصبرُ على أداء الطاعاتِ وفعلها أفضلَ من الصبر على ترك المحرمات، فهذا هو حقيقةُ الصبر، وهذه هي درجتُه.





ونقفُ على هذا، ونكملُ هذا المقام -مقام الصبر- في الدَّرسِ القادم، نسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا من الصابرين، وأن يجعلنا من الذين صدقتْ قلوبُهم مع الله، وهذَّبوا قلوبَهم وأعمالَهم لله -جل وعلا-، وإلى أن نلتقي في الحلقة القادمة، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.





# الحلقة الخامسة: الصبر (٢)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين؛ أما بعد:

فنواصلُ ما ابتدأنا به في أعمال القلوب ودراستِهَا وما يتعلَّقُ بها، مما سطَّره وكتبه شيخُ الإسلام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه مدارج السالكين، وقد وصلنا في الدَّرس الماضي إلى درجة الصبر، وما زلنا نعيشُ معها، ونأخذُ ما يتعلق بهذه الدرجة العظيمة الكبيرة التي هي من صفاتِ المؤمنين، قال -رحمه الله تعالى-:

أنواع الصبر؛ وهو على ثلاثة أنواع: صبرٌ بالله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله.

فالأولُ -يعني: صبرًا بالله-: الاستعانةُ به ورؤيتُهُ أنه هو المصبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال الله -جل وعلا-: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [سورة النحل: ١٢٧]، يعني: إنْ لم يصبِّرك هو لم تَصْبِر، يعني: وما صبرُك إلا بالله، فهذا أولُ نوعٍ من أنواع الصبر: أن يكونَ صبرُ العبد بالله.

والنوع الثاني: الصبرُ لله، وهو أن يكون الباعثُ له على الصبر محبةَ الله وإرادةَ وجهه، أي: أنْ يكونَ مخلصًا في صبره صادقًا به وتقربًا إليه، لا لإظهار قوَّة النفس؛ لأنه قد يتنازع إظهارُ قوة النفس مع الصبر، يريدُ أن يصبر ليُرِيَ الناس أو يُرِيَ نفسَه أنه صاحبُ عزم وصاحب قوة، لكن هذا خطأ، فيجبُ أن يكون الصبرُ هو لله -جل وعلا-، ولا يطلبَ الاستحمادَ من الخلق على صبره؛ لأن الصبر من العبادة، والعبادةُ أساسُها الإخلاصُ؛ ولذلك كان أولُ شيء ابتدأنا به هو الإخلاص.

والنوعُ الثالثُ من أنواع الصبر: الصبرُ مع الله، وهو دورانُ العبد مع مرادِ الله الدينيِّ منه، ومع أحكامِهِ الدينيَّة، يعني: ما أمره الله -جل وعلا- به؛ أن يصبرَ على أمر الله -جل وعلا-، صابرًا نفسَه مع أوامره، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها، يتوجَّهُ معها أين توجهتْ

ركائبُها، وينزلُ معها أين استقلَّتْ مضاربُها، فهذا معنى كونِهِ صابرًا مع الله، أي: قد جعل نفسَه وقفًا على أوامرِهِ ومحابِّه، وهذا من أشدِّ أنواع الصبر وأصعبها؛ فهو صبر الصدِّيقين.

ولذلك قال ذو النونِ المصري: "الصبرُ التباعدُ من المخالفات، والسكونُ عند تجرُّع غصص البليَّة، وإظهارُ الغنى مع حلولِ الفقرِ بساحات المعيشة"، ولذلك قال بعضُ الشُّعراءِ كذلك:

الصَّبرُ مثلُ اسمِهِ مرٌّ مذاقتُهُ *** لكنْ عواقبُهُ أحلى مِنَ العسلِ

وللصبر خمسُ مراتبَ ذكرها أهلُ العلمِ على التدرُّج؛ فأوَّلُها صابرٌ، ثمَّ مصطبرٌ، ثمَّ متصبِّرٌ، ثمَّ صبورٌ، ثمَّ صبَّارٌ.

فالصابرُ أعمُّها، وهو الأصلُ فيه، وكل إنسان يجبُ أن يكون صابرًا، والمصطبرُ هو: الذي يكتسبُ الصبر المليء به، يعني: يبحثُ عن الصبر، يصبِّرُ نفسَه، والمتصبرُ هو: المتكلفُ له الحاملُ نفسَه عليه، والصبورُ هو: العظيمُ الصبر؛ لأنَّ "صبورٌ" على وزن "فَعُولٌ"، وهي صيغةُ مبالغة، العظيمُ الصبر الذي صبرُهُ أشدُّ من صبر غيره، والصبَّارُ: الكثيرُ الصبر، كذلك من صيغ المبالغة، فهذا في القدرِ والكمِّ، يعني: صبَّارٌ كثيرُ الصبر، والصبورُ عَظُمَ صبرُه، والذي قبلَهُ في الوصفِ والكيف، يعني: الصبَّارُ مَنْ كثر صبرُه، والصبورُ من كانَ صبرُه عظيمًا في الأمور التي تصيبُه؛ ولذلك قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ -رضي الله عنه-: "الصبرُ مطيةٌ لا تكبو".

ومن الآيات التي ذكرها الله -جل وعلا- عن الصبر قوله سبحانه: {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا} [سورة آل عمران: ٢٠٠]، فهذه فيها كذلك مراتبُ الصبر؛ ولذلك قيل: إنه انتقالٌ من الأدنى إلى الأعلى؛ فالصبرُ دون المصابرة، والمصابرةُ دون المرابطة، والمرابطةُ مفاعلةٌ من الرَّبطِ وهو الشَّد، وسُمِّي المرابطُ مرابطًا؛ لأنَّ المرابطين يربطون خيولَهم ينتظرونَ الفزع.

فمعنى {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا}:

قيل: "اصبروا بنفوسِكُمْ على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى، ورابطوا بأسراركم على الشوقِ إلى الله".

وقيل: "اصبروا على النَّعماء، وصابروا على البأساءِ والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إلهَ الأرضِ والسماء، لعلكم تُفلِحُونَ في دار البقاء".

وقيل: "الصبرُ مع النفس، والمصابرةُ بينك وبين عدوِّك، والمرابطةُ الثباتُ".

يعني: أنَّ المرابطة ناتجةٌ عن المصابرة، والمرابطةُ الثباتُ وإعداد العدة، كما أن الرباط لزومُ الثغر لئلا يهجمَ منه عدوٌّ، فكذلك الرباطُ أيضًا لزومُ ثغر القلبِ لئلا يهجم عليه الشيطانُ، فيملكَهُ أو يخربَهُ أو يشعثَه.

وقد أمر الله -جل وعلا- بالصبر في كتابه في كثير من الآيات، ومن أعظم الصبر الذي أمر به: الصبرُ الجميل، والصفحُ الجميل، والهجرُ الجميل، وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله-: "الصبرُ الجميلُ هو الذي لا شكوى فيه -يعني: في نفسِه ولا معه، أي: لا تصاحبُه-، والصفحُ الجميلُ هو الذي لا عتابَ فيه -يعني: يسامحُ مع شكرِ المخطئ-، والهجرُ الجميلُ هو الذي لا أذى معه".

ودرجاتُ الصبر كثيرةٌ، **ومنها: الصبرُ عن معصية الله**؛ أن يصبر الإنسانُ عن معصية الله فلا يعصيه، والذي يعينُ على هذا الصبر مطالعةُ الوعيد، يعني: أن يطالعَ وعيدَ المعصية، إذا عصى اللهَ ماذا توعَّدهُ الله -جل وعلا- على ذلك؟

فبمطالعة الوعيد فيها إبقاءٌ على الإيمان، وحذرٌ من الحرام، وأحسنُ منها الصبرُ عن معصية للحياء، فهنا ذكر -رحمه الله- للصبر عن المعصية سببين وفائدتين، فالسببان هما الخوفُ من لحوق الوعيد المترتبِ عليه، والثَّاني: الحياءُ.

يعني: أن الإنسان مما يعينُهُ على الصبر أنَّه يخافُ من لحوق الوعيد المترتبِ عن تلك المعصية، وثانيًا: يستحي من الله -جل وعلا- في أنه يستعينُ على معاصي الله بنعمه، ويبارز الله -جل وعلا- بعوائمه، فالله -جل وعلا- ينعمُ عليه وهو يعصي الله -جل وعلا-! ولذلك منزلةُ الحياء -وسيأتي الكلام عليها في دروس لاحقة- من أعظم منازل الإيمان.

وأمَّا الفائدتان اللَّتان يستفيدهما المؤمنُ إذا أمسك نفسَه وحبسها عن ارتكاب المعاصي: فالإبقاءُ على إيمانه، والحذرُ من ارتكاب الحرام؛ فمطالعة الوعيد والخوف منه اللَّذان يعينان على الصبر على الطَّاعة، يبعثُ على قوة الإيمان بالخبرِ والتصديقِ بمضمونه، وأمَّا الحياءُ؛ فيبعثُ على قوة معرفة الله، ومشاهدة معاني الأسماءِ والصفات، فهو يستحي من الله لأنه عليمٌ خبيرٌ، يعلمُ دقائقَ الأمور، ويعلمُ السرَّ والجهرَ والظاهرَ والباطن.

وأحسنُ من هذا كلِّه أن يكونَ الباعثُ على الصبر وازعَ الحب، فيتركَ معصيتَه محبةً له، يعني: يترك معصية الله -جل وعلا- لأنه يحبُّ الله، فلا يحبُّ أن يعصيَه.

والفائدتان اللَّتان هما الإبقاءُ على الإيمان تبعثُ على ترك المعصية؛ ففائدة الإبقاء على الإيمان تبعثُ على ترك المعصية؛ لأنها لا بد أن تُنقِصَهُ أو تذهب به أو تُذهِبَ رونقَه وبهجتَه، أو تطفئ نورَه، أو تضعفَ قوَّته، أو تنقص ثمرته.

ومن عقيدة أهل السُّنة: أن المعاصي مُنقِصَةٌ للإيمان، فهذا أمرٌ ضروريٌّ بين المعصية وبين الإيمان يُعلَمُ بالوجود والخبر والعقل، كما صح عن النبي ﷺ: (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهوَ مُؤْمِنٌ)[1]، إلى آخر الحديث.

والفائدةُ الثانيةُ التي يحصِّلُها الإنسانُ إذا صبر عن المعاصي: هي الحذرُ من الوقوع في الحرام؛ فهو الصبرُ عن كثير من المباح؛ حذرًا من أن يسوقَهُ إلى الحرام، يعني: أن يجعل لجامًا عن المحرمات، بأن يصبر على كثيرٍ من المباحات.

---

[1] رواه البخاري.

**والدرجةُ الثانيةُ للصبر -بعد الصبر عن معصية الله-:** الصبرُ على طاعة الله، وذلك بالمحافظة عليها دومًا، ورعايتِهَا إخلاصًا، وتحسينِهَا علمًا وكذلك عملًا، فهذا يدل على أنه عند فعله للطاعة يكونُ قد ترك تلك المعاصي؛ لأن فعل الطاعاتِ آكدُ من ترك المعاصي، فيكونُ الصبر على فعل الطاعات فوق الصبر على ترك المعاصي، وهذا هو الصوابُ، كما تقدم الحديث عن ذلك في دروس سابقة؛ لأن ترك المعصية إنما كان لتَكْمُلَ الطاعة، والنهيُ مقصودٌ للأمر، فالنهيُ عن ارتكاب المعاصي لأنَّه يُضعِفُ المأمور به؛ ولذلك هذا رأي شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-.

ومسألةُ هذه التي ذكرها -الصبر على طاعة الله- يستفيدُ بها الإنسانُ، ومن الأمور التي يستعينُ بها الإنسانُ في الصبر على طاعة الله: دوامُ طاعتِه والإخلاصُ لله ووقوعُها على مقتضى العلم؛ لأن الطاعاتِ تختلفُ من واحدٍ إلى آخر؛ فإن العبد إنْ لم يحافظ عليها دوامًا عطَّلها، وإنْ حافظ عليها دوامًا تعرَّضتْ له آفتان: آفةُ ترك الإخلاص؛ بأن يكونَ الباعثُ على العبادة غيرَ وجه الله -سبحانه وتعالى-، والآفةُ الثانية: أن لا تكونَ مطابقةً للعلم؛ بحيثُ لا تكونُ على اتباع السنة؛ ولذلك الصبرُ على طاعة الله أن يحافظَ عليها دومًا، وأن يحفظَها بالإخلاص، وأن يتابع النبي ﷺ فيها؛ فبالمحافظة عليها دومًا ورعايتِها إخلاصًا وتحسينِها علمًا؛ يصلحُ عملُ الإنسانِ في ذلك.

**أمَّا الدرجةُ الأخيرةُ للصبر -وهي الصبرُ على البلاء-:** فبملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوينِ البليَّةِ بِعَدِّ أيدي المِنَنِ وذكرِ سوالفِ النعم.

فالأمرُ الأوَّل: ملاحظةُ حسن الجزاء، يعني: أن الله -جل وعلا- لا يبتلي الإنسان ببلية إلا يكون لهذه البلية خيرٌ له وجزاءٌ له، لأنَّ أعظمَ الناس ابتلاءً المؤمنون: الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثل، وقال الشَّاعرُ:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ *** وتأتي على قدر الكِرَامِ المكارمُ





والثاني: انتظارُ روح الفرج، يعني: راحتَه ونسيمَه ولذتَه؛ لأن الفرج يكونُ مع الصبر، وتهوينُ البليَّة: أن ينظر إلى نعم الله ويعدِّدَها، وينظر إلى ما امتنَّ الله عليه -جل وعلا- من النعم ويُعدِّدها، فينسى بذلك هذه البليَّةَ التي أصابتْهُ.

نسأل الله -جل وعلا- أن نكون من الصابرينَ ومن المؤمنينَ حقًّا، ومن الذين صلحتْ أعمالُهم وقلوبُهم.

ونختمُ بهذا ما يتعلَّقُ بهذه الدرجةِ العظيمةِ والمرتبةِ العظيمةِ التي هي الصبرُ، على أمل أن نلتقي بكم في درسٍ آخرَ وفي لقاءٍ آخر، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ، وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.




# الحلقة السادسة: التوكل على الله

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين؛ أمَّا بعد:

فنواصلُ ما ابتدأنا به من قبلُ من سلسلةِ أعمال القلوب وما يتعلقُ بها، ودرسُنا اليومَ وحلقةُ اليومِ تكونُ عن عمل عظيم ومنزلة عظيمة من منازل أعمال القلوب، ألا وهي التوكُّلُ؛ فالتوكلُ هو سِمَةُ المؤمنين وصفتُهم، قال الله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)} [سورة المائدة]، وقال: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)} [سورة التوبة]، وقال سبحانه: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق: ٣].

وذكر سبحانه عن أوليائه أنهم يقولون: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)} [سورة الممتحنة]، وقال -سبحانه وتعالى- لرسوله: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [سورة الملك: ٢٩]، وقال كذلك: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)} [سورة النمل]، وقال -جل وعلا-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)} [سورة الأنفال].

والقرآنُ مملوءٌ من كثير من الآيات في هذا المقام العظيم وهذه المنزلة الكبيرة، وفي الصَّحيحين في حديث السبعين ألفًا الَّذينَ يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ولا عذاب، مِنْ صفاتهم التي ذكرها النبيُّ ﷺ: (هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)، وفي صحيح البخاريّ عن ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- قال: "{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، قالها إبراهيمُ ﷺ حين أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها مُحَمَّدٌ ﷺ حينَ قالوا له: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)} [سورة آل عمران: ١٧٣]".

وفي الترمذي عن عمر -رضي الله عنه- مرفوعًا: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا)[١]، وفي السُّنن عن أنسٍ -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: (مَنْ قَالَ - يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ-: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يقالُ له:هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فيقولُ الشيطانُ لشيطان آخر: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟!)[٢].

فالتوكل هو من أهم الأمور، بل ذكر أهل العلم أنه نصفُ الدين، كما أن الإنابة هي النصف الثاني؛ فإن الدين استعانةٌ وعبادةٌ، فالتوكلُ هو الاستعانة، والإنابةُ هي العبادة؛ ولذلك قال اللهُ -جل وعلا-: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [سورة الفاتحة].

ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورةً بالنازلين؛ لسعة متعلَّق التوكل وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفَّار والأبرار والفجار، والطير والوحوش والبهائم؛ فأهل السَّماواتِ والأرض المكلَّفون وغيرُهم في مقام التوكلِ وإن تباين متعلَّقُ التوكل عند كلٍّ منهم؛ ولذلك قال الإمام أحمد -رحمه الله- وهو يتحدثُ عن التوكل ويبيّنُ تعريفَه ومقامَه قال: "التوكلُ عملُ القلب"، ومعنى ذلك أنَّه عملٌ قلبيٌّ، ليس بقول اللسان ولا بعمل الجوارح ولا هو من بابِ العلوم والإدراكات.

ومِن الناس مَن يجعل التوكل من باب العلوم، فيقول: "هو علمُ القلبِ بكفاية الربِّ للعبد"، وقال بعضُهم: "التوكلُ هو الاسترسالُ مع الله مع ما يريدُ"، ومنهم من فسَّرهُ بالرِّضا، وسُئِلَ يحيى بنُ معاذ: متى يكونُ الرجلُ متوكِّلًا؟ قال: "إذا رَضِيَ بالله ربًّا"، وقال ابنُ عطاءِ الله: "التوكلُ ألا يظهرَ فيك انزعاجٌ إلى الأسبابِ مع شدة فاقتك إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السُّكونِ إلى الحقِّ مع وقوفك عليها"، وقال بعضُهم: "التوكلُ التعلقُ بالله في كلِّ حال".

---

[١] قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صَحِيحٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

[٢] رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وابن حبان من طريق ابن جريج عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.




وقال بعضُ العلماء: "إن التوكل هو عبارةٌ عن عبادةٍ مركبةٍ من مجموعِ أمورٍ لا تتمُّ حقيقة التوكل إلَّا بها"؛ ولذلك قال بعضُهم: "أجمع القومُ على أنَّ التوكل لا ينافي القيامَ بالأسباب"، يعني: أنَّ التوكل مركبٌ من الأسباب، ومركبٌ من تفويضِ الأمور إلى الله، فالاعتمادُ على الأسباب وحدَهُ ليس بتوكُّل، وتركُ الأسباب وحدَهُ ليس بتوكل، فلا يتمُّ التوكلُ إلا بالاعتمادِ على الأسباب، والاعتمادِ على الله -جل وعلا-، وجعلِ هذه الأسباب مجرَّدَ أسبابٍ فقط؛ لذلك لا يصحُّ التوكلُ إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالةٌ وتوكلٌ فاسدٌ، قال سهلُ بنُ عبد الله: "مَن طعنَ في الحركةِ فقد طعنَ في السُّنة، ومَن طعنَ في التوكُّلِ فقد طعنَ في الإيمان"، يعني: أنَّ النبي ﷺ كان أكثرَ المؤمنين توكُّلًا، ومع ذلك كانَ ﷺ يأخذُ بالأسباب؛ ولذلك قال: "فقد طعن في السُّنة، ومَن طعن في التوكُّل فقد طعنَ في الإيمان"، فالتوكلُ هو حال النبي ﷺ والكسبُ سنتُه، فمَن عمل على حاله فلا يتركنَّ سنتَه، وهذا هو الذي ورد عن النبي ﷺ.

إذًا حقيقةُ التوكل أنَّه حالٌ مركبةٌ من مجموع أمور لا تتمُّ حقيقة التوكل إلا بها، فأولُ ذلك معرفة الربِّ وصفاتِه، من قدرتِه وكفايتِه وقَيُّوميَّتِهِ وانتهاءِ الأمورِ إلى علمِه، وصدورِهَا عن مشيئتِهِ وقدرتِه، **وهذه المعرفةُ أولُ درجةٍ يضعُ بها العبدُ قدمَه في مقام التوكل**؛ ولذلك لا يصح التوكلُ من إنسان نفى وجود الله -جل وعلا- أو إنسان قد عطَّل صفاتِ الله -جل وعلا-. فأي توكل لمن يعتقدُ أن الله لا يعلمُ جزئيات العالم سفليه وعلويه، ولا هو فاعلٌ باختياره، ولا له إرادةٌ ومشيئة، ولا يقوم به صفة؟! هذا لا يمكن أن يتوكل على الله -جل وعلا-؛ لأنه قد استنقصَ من حقه -سبحانه وتعالى-.

**الدرجةُ الثانيةُ:** إثبات الأسباب والمسبَّبات؛ فإن مَن نفاها فتوكله مدخولٌ، وهذا عكسُ ما يظهرُ أن إثبات الأسباب يقدحُ في التوكل، وأن نفيَهَا تمامُ التوكل، لا؛ فإن نفاة الأسباب لا يقوم لهم توكلٌ البتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسبابِ في حصول المتوكَّل فيه؛ فهو كالدعاءِ الذي جعله الله سببًا في حصول المدعوِّ به.

**أمَّا الدرجةُ الثالثةُ من درجات التوكل**؛ فرسوخ القلب في مقام التوحيد؛ فإنه لا يستقيمُ توكل العبد حتى يصحَّ له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامتْ فيه علائقُ الشرك فتوكله معلولٌ مدخولٌ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكونُ صحةُ التوكل؛ فإن العبد متى التفت إلى غير الله -جل وعلا-؛ أخذ ذلك الالتفاتُ شعبةً من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

ومن ها هنا ظنَّ مَن ظنَّ أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حقٌّ لكن رفضها عن القلبِ لا عن الجوارحِ؛ فالتوكلُ لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلبِ وتعلُّقِ الجوارحِ بها، فيكونُ منقطعًا منها متَّصلًا بها.

**الدرجةُ الرابعة**: اعتمادُ القلبِ على الله واستنادُه إليه وسكونُه إليه، بحيثُ لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويشِ الأسبابِ ولا سكونٌ إليها، بل يخلعُ السكونَ إليها من قلبه، ويُلبِسُه السكونَ إلى مسبِّبِها، وعلامةُ هذا أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطربُ قلبُه ويخفقُ عند إدبار ما يحبُّ منها وإقبالِ ما يكره؛ لأن اعتمادَه على الله وسكونَه إليه واستنادَه إليه؛ قد حصَّنه من خوفها ورجائها، فحالُهُ حالُ مَن خرج عليه عدوٌّ عظيمٌ لا طاقة له به، فرأى حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربُّه إليه، وأُغلِقَ عليه بابُ الحصن، فهو يشاهد عدوَّه خارجَ الحصن، فاضطرابُ قلبه وخوفُه من عدوِّه في هذه الحال لا معنى له.

**الدرجةُ الخامسة**: حسنُ الظَّنِّ بالله -عز وجل-؛ فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له؛ يكونُ توكلُك عليه؛ ولذلك فسَّر بعضُهم التوكلَ بحسن الظن بالله، والتحقيقُ أن حسن الظن به يدعوهُ إلى التوكل عليه؛ إذ لا يُتصوَّرُ التوكلُ على مَن ساء ظنُّك به، ولا التوكلُ على مَن لا ترجوهُ.

**الدرجةُ السَّادسة**: استسلامُ القلب له، وانجذابُ دواعيه كلِّها إليه، وقطعُ منازعتِه، وبهذا فسَّرهُ مَن قال: "أن يكونَ العبدُ بين يدي الله كالميِّتِ بين يدي الغاسل، يقلِّبُهُ كيف





أراد"، أي: لا يكونُ له حركةٌ ولا تدبير؛ فالاستسلامُ كتسليم العبد الذليل نفسَه لسيده، وانقيادِهِ له، وتركِ منازعةِ نفسِه وإرادتِهَا مع سيِّده.

**الدرجةُ السابعةُ والأخيرةُ من درجات التوكل:** هي التفويضُ؛ فهو روحُ التوكل ولبُّه وحقيقتُه، وهو إلقاءُ أموره كلِّها إلى الله سبحانه، وإنزالُها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضَّعيف المغلوب على أمره كلَّ أمورِهِ إلى أبيه العالمِ بشفقتِهِ عليه ورحمتِه وتمامِ كفايتِهِ وحسنِ ولايتِهِ وتدبيرِه، فإذا وضع العبدُ قدمَه في هذه الدرجة؛ انتقل منها إلى درجة الرضا التي هي ثمرةُ التوكل، ومَن فسَّر التوكلَ بها فإنما فسَّرهُ بأجلِّ ثمراتِهِ وأعظمِ فوائدِه؛ فإنه إذا توكَّلَ حقَّ التوكُّلِ رَضِيَ بما يفعلُه وكيلُه.

فعلى هذا يكونُ التوكل الذي أمرنا الله -جل وعلا- بهذه الدرجات التي ينبغي علينا أن نعمل بها، وأن نتحراها في كل وقت وحين؛ فإن مَن عَمِلَ بالتوكل في هذه الصفة؛ كان من المؤمنين الذين سمَّاهم الله -جل وعلا- وذكرهُمْ في كتابه.

وبهذا يكونُ درس التوكل ومنزلة التوكل قد انتهى الكلامُ عليها بكلامٍ موجَزٍ قليل، لكنْ نسألُ الله -جل وعلا- أن ينفع به السَّامعَ والملقي، سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

# الحلقة السابعة: اليقين

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين؛ أمَّا بعد:

فنواصلُ ما بدأنا به فيما يتعلَّقُ بأعمال القلوب، هذه السلسلة التي نسأل الله -جل وعلا- أن يبارك فيها، والعملُ الذي معنا اليومَ والمنزلةُ التي معنا اليوم؛ هي اليقين.

إن اليقين هو بمنزلة الروح من الجسد، وبه يتفاضلُ العارفون بالله، وفيه يتنافسُ المتنافسون، وإليه يشمِّرُ العاملون، وعملُ القوم إنما كان عليه، وإشارتُهُمْ كلُّها إليه، وإذا تزوج الصبرُ باليقين؛ وُلِدَ بينهما حصولُ الإمامة في الدين، كما قال الله -جل وعلا-: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [سورة السجدة].

وهذا اليقينُ خصَّ الله به سبحانه الذين يفهمون الآياتِ والبراهين، كما قال الله -جل وعلا-: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)} [سورة الذاريات]، وكذلك خصَّ الله -جل وعلا- أهلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، قال -جل وعلا-: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)} [سورة البقرة]، وأخبر الله -جل وعلا- عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)} [سورة الجاثية].

فاليقينُ روح أعمال القلوب التي هي روحُ أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصِّدِّيقيَّة، وهو قطبُ هذا الشأن الذي عليه مداره، فاليقينُ هو قرين التوكل؛ ولهذا فُسِّر التوكلُ بقوة اليقين، ولكن الصحيح أن اليقين هو ثمرةُ التوكل ونتيجتُه، كما قال الله -جل وعلا-: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)} [سورة النمل]، فالحقُّ هو اليقينُ، وقالتْ رسلُ الله: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} [سورة إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل اليقينُ إلى القلب؛ امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ وسخطٍ وهمٍّ وغم، فامتلأ محبةً للهِ وخوفًا منهُ ورضًا به وشكرًا له وتوكلًا عليه وإنابةً إليه؛ فهو مادةُ جميع المقامات والأعمال، والحاملُ لها.

**أمَّا درجاتُ اليقين؛ فهو على ثلاث درجات:** الدرجةُ الأولى: علمُ اليقين، وعلمُ اليقين هو: قبولُ ما ظهر من الحق، وقبولُ ما غاب للحق، والوقوفُ على ما قام بالحقِّ، ففي هذه الدرجة ثلاثةُ أشياء:

**الأوَّلُ:** قبولُ ما ظهر من الحق -جل وعلا-، والذي ظهر منه: أوامرُهُ ونواهيه ودينُهُ الذي ظهر لنا منه على ألسنة رُسُله -عليهم الصلاة والسلام-، فنتلقَّاهُ بالقبول والانقياد والإذعان والتسليم للربوبيَّة لله -جل وعلا- والدُّخولِ تحت رقِّ العبودية.

أمَّا قبولُ ما غاب للحق؛ فهو الإيمانُ بالغيب الذي أخبر به الحق -سبحانه وتعالى- على لسان رُسُله، مِنْ أمور المعاد وتفصيله والجنة والنار، وما قبلَ ذلك من الصراط والميزان والحساب، وما قبلَ ذلك من تشقُّقِ السماء وانفطارِها وانتشارِ الكواكب ونسفِ الجبال وطيِّ العالم، وما قبلَ ذلك من أمور البرزخ ونعيمه وعذابه، فقبولُ هذا كلِّه إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا هو اليقينُ، بحيثُ لا يخالجُ القلبَ فيه شبهةٌ ولا شكٌّ ولا تناسٍ ولا غفلةٌ عنه؛ فإنه إن لم يهلك يقينَه أفسدَهُ وأضعفه.

أمَّا الثالثُ؛ فهو قولُه: الوقوفُ على ما قام بالحقِّ، يعني: ما قام به سبحانه من أسمائه وصفاته، وهو علمُ التوحيد الذي أساسُهُ إثبات أسماء الله وصفاته، وضده التعطيلُ والنفيُ، فهذا التوحيد يقابلُه التعطيلُ، أمَّا التوحيدُ القصديُّ الإراديُّ الذي هو إخلاصُ العمل لله سبحانه وعبادتُهُ وحدَه؛ فيقابلُهُ الشِّركُ، والتعطيلُ شرٌّ من الشرك؛ فإن المعطِّلَ جاحدٌ للذات أو لكمالها، وهو جحدٌ لحقيقة الإلهيَّة، أمَّا المشرك؛ فإنه قد يقرُّ بالله وصفاته، لكنه عَبَدَ مع الله غيرَه، فهو في هذا خيرٌ من المعطِّلِ للذات، وكلاهما على شرٍّ عظيم.

فاليقينُ هو الوقوفُ على ما قام بالحقِّ من أسمائه وصفاته ونعوتِ كماله وتوحيده، وهذه الثلاثةُ أشرفُ علوم الخلق: علمُ الأمر والنهي، وعلمُ الأسماءِ والصفاتِ والتوحيد، وعلمُ المعادِ واليومِ الآخر.

**أمَّا الدرجةُ الثانية من درجاتِ اليقين؛ فهي عينُ اليقين**، وهو المغني بالاستدراك عن الاستدلال، وعن الخبر بالعيان، فالفرقُ بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصَّادقِ والعيان، يعني: هذا خبرٌ ذكره لك صادقٌ فصدَّقتَه، فهو علمُ اليقين، وخبرٌ رأيتَهُ بنفسِك بعينِك، فهذه الرُّؤيةُ له تغنيك عن الاستدلال به، فهذا هو عينُ اليقين.

**وحقُّ اليقين، وهي المرتبةُ الثالثة**، وهي معاينةُ هذا، ولمسُه والإحساسُ به، سيأتي الكلامُ عليها.

وقد مُثِّلَتْ هذه المراتبُ الثلاثُ بمن أخبرك أن عنده عسلًا، وأنت لا تشكُّ في صدقه، ثمَّ أراك إياهُ فازددتَ يقينًا، فهذا عينُ اليقين، ثمَّ ذقتَ من هذا العسل، فهذا هو حقُّ اليقين، فإنَّ الأوَّل علمُ اليقين، والثاني عينُ اليقين، والثالثُ حقُّ اليقين.

فعلِمْنَا بالجنة والنار علمُ اليقين، فإذا أُزْلِفَتِ الجنةُ في الموقفِ للمتَّقين، وشاهدها الخلائقُ، وبُرِّزَتِ الجحيمُ للغاوين، وعاينها الخلائقُ؛ فذلك عينُ اليقين، فإذا أُدْخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ؛ فذلك حينئذٍ هو حقُّ اليقين.

فمعنى قوله: "هو المغني بالاستدراك عن الاستدلال"، يريدُ بهذا الإدراكَ والشُّهود، يعني: أن صاحبه قد استغنى به عن طلب الدليل؛ فإن الدليل يُطلَبُ ليحصل به العلم، أمَّا هذا فقد حصل له العلمُ بالمعاينة والرُّؤية، وهذا معنى قوله: "الاستغناءُ عن الخبر بالعيان"، فهذه هي درجةُ اليقينِ الثانيةُ التي هي عينُ اليقين.

أمَّا حقُّ اليقين؛ فاعلم أن هذه الدرجةَ لا تُنَالُ في هذا العالم إلا للرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-؛ فإن نبينا ﷺ رأى بعينيه الجنة والنار، وموسى -عليه السلام-

سمع كلام الله منه إليه بلا واسطةٍ وكلَّمَهُ تكليمًا، وتجلَّى للجبل وموسى ينظرُ، فجعله دكًّا هشيمًا، نعم، يحصلُ لنا حقُّ اليقين من مرتبة، وهي ذوقُ ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان المتعلقةِ بالقلوبِ وأعمالِها؛ فإنَّ القلب إذا باشرَها وذاقَها صارتْ في حقِّه حقَّ يقين.

أمَّا أمورُ الآخرة والمعاد، ورؤيةُ الله جهرةً عيانًا، وسماعُ كلامه حقيقة بلا واسطة؛ فحظُّ المؤمن منهُ في هذه الدار الإيمانُ وعلمُ اليقين، وحقُّ اليقين يتأخَّرُ إلى وقت اللِّقاء، نسألُ الله -جل وعلا- أن نكون من أهل ذلك اللِّقاء، ولكنْ لمَّا كان الإنسانُ المؤمنُ يسيرُ في هذا؛ عليه أن يؤمن به وأن يعتقدَهُ حتَّى يصيرَ له منه حق اليقين.

وبهذا تكونُ هذه المرتبةُ العظيمةُ -مرتبة اليقين- قد انتهى الكلامُ عليها والتعليقُ عليها، نسألُ الله -جل وعلا- أن يجعلنا من الذين يستيقنون، وأن يجعلنا من الذين آمنوا بربهم يقينًا؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

# الحلقة الثامنة: ذكر الله

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فهذه حلقةٌ جديدةٌ ودرسٌ جديدٌ في سلسلة أعمال القلوب، نسأل الله -جل وعلا- أن يبارك فيها وفي المستمعين جميعًا، وحلقةُ اليومِ موضوعُها عن أعظم شيء في أمور أعمال القلب، ألا وهو الذكرُ، فمنزلةُ الذكر هي منزلةُ القوم الكبرى التي منها يتزوَّدون، وفيها يتَّجرون، وإليها دائمًا يتردَّدون؛ فالذكر عند أهل المعرفة وأهل العبادة هو منشورُ الولاية، الذي مَن أُعطِيَهُ اتصل، ومن مُنِعَهُ عُزِل، وهو قوتُ قلوب القوم الذي متى فارقها صارتِ الأجسادُ لها قبورًا، وعمارةُ ديارهم التي إذا تعطَّلتْ عنه صارت بُورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهابَ الطريق، ودواءُ أسقامهم الذي متى فارقهم انتكستْ منهُمُ القلوب، والسببُ الواصلُ والعلاقةُ التي كانتْ بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكرِكُمُ *** فنترك الذكرَ أحيانًا فننتكسُ

فبه يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهونُ عليهم به المصيبات، إذا أظلَّهُمُ البلاءُ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلتْ بهم النوازلُ فإليه مفزعهم؛ فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوسُ أموال سعادتهم التي بها يتَّجرون، يدعُ القلبَ الحزينَ ضاحكًا مسرورًا، ويُوصِلُ الذاكرَ إلى المذكور، بل يدعُ الذاكر مذكورًا، وفي كل جارحة من الجوارح عبوديةٌ مؤقتة، ولكنَّ الذكر هو عبودية القلبِ واللسانِ وهي غيرُ مؤقتة، بل هم مأمورون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

فكما أن الجنة قيعانٌ وهو غراسُها، فكذلك القلوبُ بورٌ خرابٌ وهو عمارتُها وأساسُها، وهو جلاءُ القلوب وصقالُها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالُها، وكلما ازداد الذاكرُ

في ذكره استغراقًا، ازداد المذكورُ محبةً إلى لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه، نسي في جنب ذكره كلَّ شيء، وحفظ الله عليه كلَّ شيء، وكان اللهُ عوضًا من كل شيء، به يزولُ الوقرُ عن الأسماع، والبكمُ عن الألسن، وتنقشعُ الظلمةُ عن الأبصار، زيَّن الله به ألسنة الذاكرين، كما زيَّن به وبنوره أبصارَ الناظرين؛ فاللسانُ الغافلُ كالعينِ العمياءِ والأذنِ الصَّماءِ واليدِ الشَّلاء، وهو بابُ الله الأعظمُ المفتوحُ بينه وبين عبادِهِ ما لم يُغْلِقْهُ العبدُ بغفلته.

والذكر في القرآن؛ ذكره الله -جل وعلا- على عشرة أوجه؛ أولًا: الأمرُ به مطلقًا ومقيدًا، والثاني: النهيُ عن ضده من الغفلةِ والنسيان، وثالثًا: تعليقُ الفلاح باستدامتِهِ وكثرتِه، والرابعُ: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة، والخامس: الإخبار عن خسران مَن لَهَا عنهُ بغيره، والسادس: أنه سبحانه جعل ذِكْرَهُ لهُمْ جزاءً لذكرِهِمْ له، والسابع: إخباره سبحانه أنه أكبرُ من كلِّ شيء، والثامن: أنه جعله خاتمةَ الأعمالِ الصالحةِ كما كان مفتاحَها، التاسع: الإخبار عن أهلِهِ بأنهم هم أهلُ الانتفاعِ بآياته، وأنهم أولو الألبابِ دونَ غيرهم، والعاشر: أنه جعله قرينَ جميع الأعمال الصالحة وروحَها، فمتى عدمتْهُ كانتْ كالجسدِ بلا روح.

أمَّا الأول من هذه الصُّور؛ فهو كقوله -جل وعلا-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [سورة الأحزاب: ٤١-٤٣]، وقوله -جل وعلا-: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} [سورة الأعراف: ٢٠٥]، هذا هو الأمرُ به.

أمَّا النهيُ عن ضده؛ فكقوله -جل وعلا-: {وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)} [سورة الأعراف]، وقوله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر: ١٩].

أمَّا تعليقُ الفلاح بالإكثار منه؛ فكقوله -جل وعلا-: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)} [سورة الأنفال].

أمَّا الثناءُ على أهله وحسنُ جزائهم؛ فكقوله -جل وعلا-: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} إلى قوله: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)} [سورة الأحزاب].

وأمَّا خسرانُ مَن لَهَا عنهُ بغيره؛ فكقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)} [سورة المنافقين].

وأمَّا جعلُ ذكرِهِ لهم جزاءً لذكرهم له؛ فكقوله سبحانه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)} [سورة البقرة].

وأمَّا الإخبارُ عنه بأنه أكبرُ من كلِّ شيء، فقولُهُ سبحانه: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [سورة العنكبوت: ٤٥].

ومعنى هذا أنَّ ذكر الله أكبرُ من كل شيء؛ فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلِّها إقامةُ ذكره؛ فهو سر الطاعات وروحُها.

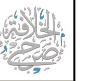
وقيل: إنكم إذا ذكرتموه ذَكَرَكُم، فكان ذكرُهُ لكم أكبرَ من ذكركم له.

وقيل: وَلَذِكْرُ اللّهِ أكبرُ من أن يبقى معه فاحشةٌ ومنكرٌ، بل إذا تمَّ الذكرُ مَحَقَ كل خطيئة ومعصية.

وأمَّا ختمُ الأعمال الصالحة به؛ فكقوله -جل وعلا-: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)} [سورة البقرة] في ختم الصيام.

وختم الحجِّ في قوله: {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [سورة البقرة: ٢٠٠].

وختم الصلاة بقوله: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ} [سورة النساء: ١٠٣].





وختم الجمعة بقوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)} [سورة الجمعة].

ولهذا كان خاتمة الحياة الدُّنيا وإذا كان آخرَ كلام العبد أدخلَهُ اللهُ الجنة.

وأمَّا اختصاصُ الذاكرين بالانتفاع بالآيات -وهم أولو الألباب والعقول-؛ فقوله -جل وعلا-: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وأمَّا مصاحبتُهُ لجميع الأعمال واقترانُه بها وأنَّه روحُها؛ فإنه سبحانه قرنه بالصلاة، فقال سبحانه: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)} [سورة طه]، وقرنه بالصيام والحجِّ ومناسكه، بل هو روحُ الحج ولبُّهُ ومقصودُه؛ فإن النبي ﷺ قال: (إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْكَعْبَةِ، والسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[١]، وكذلك قُرِنَ بالجهاد، وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)} [سورة الأنفال].

فهذا هو حال الذاكرين اللهَ -سبحانه وتعالى- وهي التي أمر الله -جل وعلا- بها في كثير من الآيات، أمر الله -سبحانه وتعالى- بالذكر على أكثر من وجه؛ لأنه هو لبُّ هذه الأعمال وروحُها، وإذا خَلَا القلب من الذكر لله -جل وعلا-؛ فإنه سيكونُ كالقلب الميت الذي لا ينتفعُ بشيء؛ فإن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)[٢]، كذلك قال ﷺ -كما في صحيح مسلم-: (مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ).

فجعل بيتَ الذاكر بمنزلة بيتِ الحي، وبيتَ الغافل بمنزلة بيتِ الميت، وهو القبرُ، وفي اللفظِ الأوَّل جعل الذاكرَ بمنزلة الحي، والغافلَ بمنزلة الميت، فتضمَّن اللفظان أن

---

[١] رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وابن خزيمة. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

[٢] رواه البخاري.

القلبَ الـذاكر كالحيّ في بيـوتِ الأحيـاء، والغافـلَ كالميتِ في بيـوتِ الأمـوات، ولا ريب أن أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبُهم فيها كالأمواتِ في القبور، كما قيل:

فنسيانُ ذكرِ الله موتُ قلوبِهِمْ *** وأجسامُهُمْ قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهُمْ في وحشةٍ من جسومِهِمْ *** وليسَ لهم حتَّى النشورِ نشورُ

وإلى هنا تكونُ هذه المرتبةُ العظيمةُ -مرتبة الذكر- انتهى الكلامُ عليها مع طولها، وقد ذكـر شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "الوابل الصيبُ ورافعُ الكلم الطَّيب" أكثرَ من مئة فائدة للذكر، فليُرْجَعْ لها؛ فإن هذا المحلَّ ضيقٌ عن ذكرها، وصلى الله وسلم على محمَّد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

# الحلقة التاسعة: الخوف من الله

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فهذه حلقةٌ جديدةٌ ودرسٌ جديدٌ فيما يتعلَّق بسلسلة أعمال القلوب التي ابتدأنا فيها في حلقاتٍ سابقة، نسألُ الله -جل وعلا- أن يعيننا على إتمامها، والمنزلةُ التي معنا اليوم والعملُ الذي معنا اليوم هو الخوف؛ فهو من أجلِّ منازل الطريق إلى الله وأنفعها للقلب؛ فهو فرضٌ على كل أحد.

إن الله -جل وعلا- ربطه بالإيمان؛ فقال: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)} [سورة آل عمران]، وقال كذلك: {فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)} [سورة النحل]، وقال كذلك: {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [سورة المائدة: ٤٤]، ومدح أهله في كتابِهِ وأثنى عليهمْ بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧)} إلى آخرها فقال: {أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)} [سورة المؤمنون].

ولما أخبر النبي ﷺ عن هذه الآية؛ قالت عائشة -رضي الله عنها-: "يا رسول الله، {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} أهو الذي يزني ويشربُ الخمرَ ويسرق؟"، قال: (لَا لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ)[١]؛ لذلك قال الحسنُ -رحمه الله-: "عَمِلُوا -والله- بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليهم".

إن المؤمنَ جمع إحسانًا وخشية، والمنافقَ جمع إساءةً وأمنة، وللخوف ألفاظٌ مترادفةٌ معه، قد تزيدُ وتختلفُ في بعض الأمور البسيطة، ولكنها تتشابه معه في كثير

---

[١] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، ضعفه الأرنؤوط.

من المسائل، خاصة في أصله، كالوجل والخشية والرهبة؛ فهي ألفاظٌ متقاربةٌ مع بعضها البعض.

والخوفُ قيل في تعريفه كما قال الجنيدُ -رحمه الله-: "الخوف توقُّعُ العقوبةِ على مجاري الأنفاس"، وقيل: "الخوف اضطرابُ القلب وحركتُه من تذكر المخوفِ منه"، وقيل: "الخوفُ قوة العلم بمجاري الأحكام"، وهذا سببُ الخوف.

والخشيةُ أخصُّ منه؛ فإن الخشية للعلماء؛ لأن الله قال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [سورة فاطر: ٢٨] فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفة، ولذلك النبي ﷺ قال: (إنّي أتقاكُمْ لله وأشدُّكم له خشيةً)[١]، فالخوفُ حركة، والخشيةُ انجماعٌ وانقباضٌ وسكونٌ؛ فإن الذي يرى العدوَّ والسيلَ ونحوَ ذلك له حالتان: الحالةُ الأولى: حركةٌ للهرب، وهي حالةُ الخوف، والحالةُ الثانية: سكونُهُ وقرارُهُ في مكانٍ لا يصلُ إليه فيه، وهي الخشيةُ، ومنهُ "انخشى الشَّيءُ" يعني: دخل في بعضه.

وأمَّا الرهبة؛ فهي الإمعانُ في الهربِ من المكروه، وهي ضدُّ الرغبة التي هي سفرُ القلبِ في طلب المرغوب فيه، وبين "الرَّهب" و "الهرب" تناسبٌ في اللفظ والمعنى، يجمعُها الاشتقاقُ الأوسطُ الذي هو عقدُ تقاليب الكلمة في معنى جامع.

وأمَّا الوجل؛ فهو رجفانُ القلب وانصداعُه لذكر من يُخَافُ سلطانُه وعقوبتُه، أو لرؤيتِه؛ فهو وجلٌ منه دائمًا.

وأمَّا الهيبة؛ فهي خوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبَّة والمعرفة، والإجلال: تعظيمٌ مقرونٌ بالحب.

فالخوف لعامَّة المؤمنين، والخشيةُ للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلالُ للمقرَّبين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكونُ الخوفُ والخشية، كما قال النبي ﷺ: (إنّي لأعلمُكم بالله وأشدُّكم له خشيةً -وفي رواية-: خوفًا)[٢]، وكما قال كذلك: (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا

[١] رواه مسلم بنحوه من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

[٢] رواه بنحوه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى)[١].

فإن صاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومَثَلُهما مَثَلُ مَن لا علمَ له بالطِّب، ومَثَلُ الطبيبِ الحاذق؛ فالأولُ يلتجئ إلى الحمية والهرب، والطبيبُ يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

فالخائفُ هاربٌ من ربه إلى ربه -سبحانه وتعالى-، وكما قال بعضُ العلماء: "ما فارق الخوفُ قلبًا إلا خَرِب"، كما قال بعضُهم كذلك: "إذا سكن الخوفُ القلوبَ؛ أحرق مواضعَ الشهواتِ منها، وطَرَدَ الدُّنيا عنها"، وقال ذو النون: "الناسُ على الطَّريقِ ما لم يزل عنهم الخوفُ، فإذا زال عنهم الخوف؛ ضلُّوا الطريق"، وقال حاتمٌ الأصمُّ: "لا تغترَّ بمكانٍ صالح؛ فلا مكانَ أصلحُ من الجنة، ولقي فيها آدمُ ما لقي، ولا تغترَّ بكثرة العبادة؛ فإن إبليسَ بعد طول العبادة لقي ما لقي، ولا تغترَّ بكثرة العلم؛ فإن بلعامَ بنَ باعوراء لقي ما لقي، وكان يعرفُ بالاسم الأعظم، ولا تغترَّ بلقاء الصالحين ورؤيتهم؛ فلا شخصَ أصلحُ من النبي ﷺ، ولم ينتفعْ بلقائه أعداؤهُ والمنافقون".

وهذا الكلامُ الذي قاله حاتمٌ الأصمُّ قد يكون فيه بعض الأمور منتقدة، كقوله: "إن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي"، وكذلك قوله عن بلعام: "إنه يعرف بالاسم الأعظم"، ولكن هذا من باب ذكر الخبر؛ فإنه يتكلمُ عن أن الخوف لا بد أن يكون من صفة المؤمنين، فالخوفُ ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصودٌ لغيره، فهو مقصودٌ قصدَ الوسائل، لا قصدَ الأمورِ المقصودةِ لذاتها.

والخوفُ له أنواعٌ كثيرة، لكن المحمود منه هو ما حال بينه وبين محارم الله -عز وجل-، فإذا تجاوز ذلك خيفَ منه اليأسُ والقنوط، يعني: حتَّى لا يرتفع عنه الإنسانُ فيكون خوفُه يجعلُهُ يتركُ العباداتِ خشيةَ ألا تُقبَلَ منه، بل هذا باطلٌ وهذا من تلبيسِ

[١] رواه أحمد والترمذي واللفظ له وقال: حسن غريب، وابن ماجه من حديث مورِّق العجلي عن أبي ذر رضي الله عنه .

إبليس، لكنَّ الخوفَ الصحيح هو الخوفُ الذي يحجزك عن محارم الله -سبحانه وتعالى-.

وأمَّا درجاتُ الخوف؛ فمنها: الانخلاعُ من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر، يعني: الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد، وهو على ثلاث درجات:

**الدرجةُ الأولى:** الخوفُ من العقوبة، وهو الخوفُ الذي يصحُّ به الإيمان، وهو خوف العامة، وهو يتولد من تصديقِ الوعيد وذكرِ الجناية ومراقبةِ العاقبة، وهذا الخوفُ مسبوقٌ بالشعور والعلم؛ فمحالٌ خوفُ الإنسان مما لا شعورَ له به، وله متعلقان: أحدُهما: نفسُ المكروهِ المحذورِ وقوعُه، والثاني: السببُ والطريقُ المفضي إليه؛ فعلى قدر شعوره بإفضاء السَّببِ إلى المخوف، وبقدر المخوفِ يكونُ خوفه، وما نقص من شعوره بأحدِ هذين؛ نقص من خوفِهِ بحسب ذلك.

ومراقبةُ العاقبةِ يعني: زيادة استحضار المخوفِ وجعلُه نصبَ عينيه بحيثُ لا ينساه؛ فإنه وإنْ كان عالمًا به؛ لكنَّ نسيانَه وعدمَ مراقبته يحولُ بين القلب وبين الخوف؛ ولذلك كان الخوفُ علامةَ صحة الإيمان، وترحلُه من القلب علامةَ ترحلِ الإيمان منه، والله أعلم.

**أمَّا الدرجةُ الثانية:** فخوفُ المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة المشوبة بالحلاوة، يعني: أن من حصلتْ له اليقظةُ بلا غفلة، واستغرقتْ أنفاسُهُ فيها؛ فرح بذلك واطمأنَّ له؛ فإنه لا أحلى من حضوره في اليقظة؛ فإنه ينبغي أن يَخافَ من المكر، وأن لا يُسلَبَ هذا الحضور؛ فكم مِن مغبوطٍ بحاله انعكسَ عليه الحال، ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال، فأصبح يقلِّبُ كفَّيهِ ويضربُ اليمينَ بالشمال، بينما بَدْرُ أحواله مستنيرًا في ليالي التَّمام؛ إذْ أصابه الكسوفُ فدخل في الظلام، فبُدِّلَ بالأنسِ وحشةً، وبالحضورِ غيبةً، وبالإقبالِ إعراضًا، وبالتقريبِ إبعادًا، وبالجمعِ تفرقة، فعليه





أن يتفطَّن، وأن لا يغترَّ بما معه من الإيمان ومن العمل الصَّالح، بل يحذر ويكون دائمًا معه الخوفُ.

**أمَّا الدرجةُ الثالثةُ من درجات الخوف**: فهي مقام أهل المعرفة بالله، وهو مقامُ هيبة الجلال، وهو أعلى الدرجات، يعني: أن وحشة الخوف إنما تكونُ مع الانقطاع والإساءة، وأهلُ معرفةِ الله أهلُ الوصول إلى الله وقربِهِ منهُم؛ فليس خوفُهم خوفَ وحشة كخوف المسيئين المنقطعين؛ لأن الله -عز وجل- معهم بصفة الإقبال عليهم والمحبة لهم.

وهذا هو بخلاف هيبةِ الجلال؛ فإنها متعلقةٌ بذاته، فكلما كان العبد أعرف بالله وأقرب إليه؛ كانت هيبتُه وإجلالُه في قلبه أعظم، وهي أعلى درجات الخوف التي ينبغي للإنسان أن يكون هكذا دائمًا يخافُ من الله -جل وعلا-.

وبهذا تكونُ هذه المرتبةُ وهذه المنزلةُ العظيمة -منزلة الخوف- ينتهي الكلامُ عليها، نسألُ الله -جل وعلا- أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وإلى لقاء آخر، وصلى الله وسلم على محمَّد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

# الحلقة العاشرة: الخشوع

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فمرحبًا بكم جميعًا في حلقةٍ جديدةٍ ودرسٍ جديدٍ في سلسلة أعمال القلوب التي ابتدأنا فيها في الدروس السابقة، نسألُ الله -جل وعلا- أن يعيننا على إتمامها، وأن ينفع كلًّا من الملقي والسامع في هذا، المنزلةُ التي معنا اليوم والعملُ الذي معنا اليوم؛ هو متممٌ لما في الحلقة السابقة، الحلقة السابقة كانتْ عن الخوف، وهذه عن الخشوع؛ فإنَّ كِلَا هذينِ العملينِ مرتبطٌ ببعضهم البعض؛ فالخشوعُ هو خوفٌ مع معرفة.

ولذلك الله -جل وعلا- عظَّم من هذه المرتبة في كتابه في كثيرٍ من آياتِ الكتابِ الكريم، قال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [سورة الحديد: ١٦]، قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "ما كان بين إسلامِنا وبين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية إلَّا أربعُ سنين"، {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ} يعني: ألم يَحِنِ الوقتُ إلى أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله؟! وقال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "إن الله استبطأ قلوبَ المؤمنين، فعاتبهم على رأسِ ثلاثَ عشرةَ سنةً من نزول القرآن".

وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)} [سورة المؤمنون]، فصفة المؤمنين مَن خشعوا في صلاتهم؛ فالخشوعُ صفةٌ ملازمةٌ للمؤمنين.

والخشوعُ أصله في اللغة: الانخفاضُ والذلُّ والسكون، قال تعالى: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ} [سورة طه: ١٠٨] أي: سكنتْ وذلتْ وخضعتْ، ومنهُ وصفُ الأرض بالخشوع، وهو يبسُها وانخفاضُها وعدمُ ارتفاعِها بالرَّي والنبات، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ

أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} يعني: يابسةً {فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [سورة فصلت: ٣٩].

والخشوعُ في الشَّرع هو: قيام القلبِ بين يدي الربِّ بالخضوع والذل والجمعية عليه، وقيل: الخشوعُ هو الانقيادُ للحق، وهذا مِنْ موجباته؛ فمن علاماتِ الخشوع، وعلامةِ كونِ العبدِ خاشعًا: أن العبد إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحق؛ استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: الخشوعُ هو خمودُ نيران الشَّهوة، وسكونُ دخان الصُّدور، وإشراق نور التعظيم في القلوب، وقال الجنيدُ: "الخشوعُ تذلُّلُ القلوب لعلَّامِ الغيوب".

وأجمع العارفون من أهل العلم على أن الخشوع محلُّه القلبُ، وثمرتُهُ على الجوارح، وهي تُظهِرُه، وهذا تبعًا لعقيدة أهل السُّنة والجماعة، أن الأصل في الأعمال أنَّ عمل القلب هو الأولُ، ثمَّ يتبعُه ظهورُ العمل على الجوارح، فإذا لم يظهرْ شيءٌ على الجوارح؛ دلَّ على أنه لم يكن هناك عملٌ في القلب؛ ولذلك رأى النبي ﷺ رجلًا يعبثُ بلحيته في الصلاة، فقال: (لو خشع قلبُ هذا؛ لخشعتْ جوارحُه)[١]، وقال النبي ﷺ: (التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا)، وأشار إلى صدره ثلاثَ مرات[٢].

وقال بعضُ أهل العلم: "حسنُ أدبِ الظَّاهر عنوانُ أدبِ الباطن"، ورأى بعضُهم رجلًا خاشعَ المنكبين والبدن، فقال: "يا فلانُ، الخشوع ها هنا -وأشار إلى صدره- لا ها هنا -وأشار إلى منكبيه-".

وكان بعضُ الصحابة -رضي الله عنهم- وهو حذيفةُ يقول: "إياكُمْ وخشوعَ النفاق"، فقيل: وما خشوعُ النفاق؟ قال: "أنْ ترى الجسدَ خاشعًا، والقلبَ ليس بخاشع"، ورأى

---

[١] قال الحافظ العراقي: أخرجه التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي النَّوَادِر من حَدِيث أبي هُرَيْرَة بِسَنَد ضَعِيف أَنه من قَول سعيد بن الْمسيب رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي الْمُصَنّف وَفِيه رجل لم يسم.

[٢] رواه أحمد، قال الأرنؤوط: إسناده جيد على شرط مسلم، أبو سعيد مولى عبد الله روى عنه جمع، واحتج به مسلم، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين سوى إسماعيل بن عمر –وهو الواسطي– فمن رجال مسلم.

عمرُ بنُ الخطاب -رضي الله عنه- رجلًا طأطأ رقبتَهُ في الصلاة، فقال: "يا صاحبَ الرَّقبة، ارفعْ رقبتَك، ليس الخشوعُ في الرِّقاب، إنما الخشوعُ في القلوب".

ورأتْ عائشةُ -رضي الله عنها- شبابًا يمشون ويَتَمَاوَتُونَ في مِشْيَتِهِمْ، فقالتْ لأصحابِها: "مَن هؤلاء؟"، فقالوا: نُسَّاكٌ، فقالتْ: "كان عمرُ بنُ الخطَّابِ إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضربَ أوجع، وإذا أطعمَ أشبع، وكانَ هو الناسكَ حقًّا".

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ -رحمه الله-: "كان يُكرَه أن يُرِيَ الرجلُ من الخشوع أكثرَ مما في قلبه"، وقال حذيفة -رضي الله عنه-: "أول ما تفقدون من دينكم الخشوعُ، وآخرُ ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورُبَّ مصلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخلَ مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا"، وقال سهلٌ: "من خشع قلبه؛ لم يقرب منه الشيطان".

فالخشوعُ إذًا أصله أن يكون في القلب، وحقيقته أن يظهر ذلك على الجوارح، وليس الخشوع الشرعي فيه أن تخشع الجوارحُ دون القلب، كما يفعله بعضُ المرائين من الناس، والخشوعُ هو: خمود النفس، وهمودُ الطبائع لمتعاظمٍ أو مفزع، يعني: أنك تخشعُ لشيء عظيمٍ أو شيءٍ تفزعُ منه، فتنقبضُ نفسك وطبعك، وتخمد قواك عن الانبساطِ لمن له في القلوبِ عظمةٌ أو مهابةٌ، والحقُّ أن الخشوع معنى يلتئمُ فيه التعظيمُ لمن خشعتَ منهُ والمحبَّةُ لمن خشعتَ، والذلُّ والانكسارُ له، وهو على ثلاثِ درجات:

**الدَّرجةُ الأولى:** التذللُ للأمر، والاستسلامُ للحكم، والاتضاعُ لنظر الحق.

التذللُ للأمر: تلقِّيهِ بذلة القبول والانقياد والامتثال، ومواطأة الظَّاهر للباطن، يعني: أن تكون ذليلًا لأمر الله -جل وعلا- مع إظهار الضعف والافتقار إلى الهدايةِ للأمر قبلَ الفعل، والإعانةِ عليه حالَ الفعل، وقبولِهِ بعد الفعل.

وأمَّا الاستسلامُ للحكم؛ فيجوزُ أن يريد به الحكمَ الديني الشرعي، فيكونَ معناه عدمَ معارضتِه برأي أو شهوة، ويجوزُ أن يريدَ به الاستسلامَ للحكم القدري، وهو عدمُ

تلقِّيهِ بالتسخُّطِ والكراهةِ والاعتراض، والصحيحُ والحقُّ أن الخشوع هو الاستسلامُ للحكمين: الاستسلامُ والانقيادُ بالمسكنةِ والذلِّ لأمر الله وقضائه.

وأمَّا الاتضاع لنظر الحق؛ فهو اتضاعُ القلبِ والجوارحِ وانكسارُها لنظر الربِّ إليها واطلاعِهِ على تفاصيلِ ما في القلبِ والجوارح، وهذا أحدُ التأويلينِ في قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)} [سورة الرحمن]، وقوله سبحانه: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)} [سورة النازعات].

وهو مقامُ الربِّ على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية؛ فخوفُهُ من هذا المقام يوجبُ له خشوعَ القلب لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له؛ كان أشدَّ خشوعًا، وإنما يفارقُ القلبَ إذا غفل عن اطلاعِ الله عليه ونظرِهِ إليه، فهذا هو معنى الدَّرجةِ الأولى مِنَ الخشوع.

**أمَّا الدرجةُ الثانية**؛ فهي ترقُّبُ آفاتِ النفس والعمل، ورؤيةُ فضلِ كلِّ ذي فضلٍ عليك، وتنسُّمِ نسيمِ الفناء.

يعني: يريدُ انتظارَ ظهور نقائصِ نفسِك وعملِك وعيوبِها لك؛ فإنه يجعلُ القلبَ خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوبِ نفسه وأعماله ونقائصهما؛ فلذلك قيل: فلينظرِ الإنسانُ في عيبه قبلَ عيوبِ الآخرين؛ كالكبرِ والعُجْبِ والرياءِ وضعفِ الصِّدق وقلَّة اليقينِ وتشتُّتِ النيَّة وعدمِ تجرُّدِ الباعثِ من الهوى النفساني، وغيرِ ذلك من الأعمال التي لا يرضاها الله -جل وعلا- التي هي من عيوبِ النفسِ وآفاتها، فهذه الدرجة الثانية التي تُعِينُ على الخشوع.

الدرجة الأولى: أن تأتمرَ بالأمرِ وترضى به، الثانية: أن تنظرَ إلى عيوبِ نفسك، فكلما نظرَ الإنسانُ إلى عيبِ نفسه؛ فإنه سيحصلُ له الخشوعُ بإذن الله -سبحانه وتعالى-.

وأمَّا رؤيةُ فضلِ كلِّ ذي فضلٍ عليك؛ فهي أن تراعيَ حقوقَ الناس فتؤديَها، ولا ترى أن ما فعلوهُ من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها؛ فإن هذا من رعوناتِ النفس

وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسى فضل نفسك؛ ولذلك قال شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "العارفُ لا يرى له على أحدٍ حقًّا، ولا يشهدُ له على غيرِهِ فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب".

وأمَّا تنسُّمُ نسيمِ الفناء؛ فلما كان الفناءُ عنده غاية؛ جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقتِه، وعبَّر عنها بالنسيم للطفِ موقعِهِ من الرُّوح، وشدَّةِ تشبثِها به، ولا ريب أنَّ الخشوع سببٌ موصلٌ إلى الفناءِ فاضلِهِ ومفضوله.

**أمَّا الدرجةُ الثالثةُ من الخشوع**؛ فحفظُ الحرمة، وتصفيةُ الوقتِ من مراءاة الخلق، وتجريدُ رؤيةِ الفضل.

يعني: أنَّ الإنسان إذا اختلى بربه -سبحانه وتعالى- أن يضبط نفسه بالذل والانكسار عن البسط والإدلال؛ فإن هذا الموضع تقتضيه هذه الصفةُ أن يكون ذليلًا منكسِرًا، حتى لا يحصلَ منه سوءُ أدبٍ مع الله -سبحانه وتعالى-، أو يحصلَ له ما يحصلُ لبعض الناس من الشَّطحاتِ التي تحصلُ كما عند الصوفيَّة وغيرهم.

أمَّا تصفيةُ الوقتِ من مراءاة الخلق؛ فلا يريدُ به أن يصفي وقتَه عن الرياء؛ لأن أصحاب هذه الدرجة أعلى من هذا، إنما يريدُ أنه يُخفِي أحوالَه عن الخلق جهدَه، كخشوعِهِ وذلِّهِ وانكسارِهِ لئلا يراها الناس، فيُعْجِبُهُ اطلاعُهم عليها ورؤيتُهم لها، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله، وكم قدِ اقتطع في هذهِ المفازةِ مِنْ سالك، والمعصومُ من عصمه الله -سبحانه وتعالى-؛ فلا شيء أنفعُ للصادق من التحقُّقِ بالمسكنةِ والفاقةِ والذُّل، وأنَّه ممَّن لم يصحَّ له بعدُ الإسلامُ حتى يدَّعيَ الشرفَ فيه؛ ولذلك كان يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ما لي شيءٌ، ولا مني شيءٌ، ولا فيَّ شيءٌ"، وكان كثيرًا ما يقولُ: "أنا المُكَدِّي، وابنُ المُكَدِّي، وهكذا كانَ أبي وجدِّي"، وكانَ إذا أُثنِيَ عليه في وجهه يقولُ: "والله، إنِّي إلى الآن أجددُ إسلامي كلَّ وقت، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا".

وأمَّـا قولـه: تجريـدُ رؤيـة الفضـل؛ فهـو أن لا يـرى الفضـل والإحسـان إلا من الله -سبحانه وتعالى-؛ فهـو المانُّ بـه بلا سببٍ منك ولا شـفيعٍ لـك تقـدَّم إليـه بالشـفاعة، ولا وسيلةٍ سبقتْ منك توسَّلتَ بها إلى إحسانه.

والتجريدُ هو: تخليصُ شهودِ الفضلِ لوليه حتَّى لا ينسبَهُ إلى غيره، وإلا فهو في نفسِهِ مجرَّدٌ عن النسبةِ إلى سواه، وإنما الشأنُ في تجريدِهِ في الشُّهود؛ ليطابقَ الشهودُ الحقَّ في نفس الأمر، والله أعلم.

فهذه إذًا هي درجاتُ الخشوع التي أمرنا الله -جل وعلا- بها، وأثنى على المؤمنين بهذه الصفة العظيمة، نسألُ الله -جل وعلا- أن نكون من الخاشعين في صلاتنا وفي عباداتنا وفي أمورنا كلها، وأن يحشرنا مع الخاشعين؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وصلى الله وسلم على محمَّد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

# الحلقة الحادية عشرة: التواضع

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فما زلنا نواصلُ ما ابتدأنا به في سلسلة أعمال القلوب، نسأل الله -جل وعلا- أن يبارك لنا فيما سبق من الدروس، وأن يعيننا على إكمال الباقي منه.

أمَّا العملُ الذي معنا اليوم والدرجة التي معنا اليوم؛ فهي التواضع، قال الله -جل وعلا- وهو يصفُ عباده "عباد الرحمن"، ويصفُ كيفية تواضعهم، قال سبحانه: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [سورة الفرقان: ٦٣] أي: سكينةً ووقارًا، متواضعين غيرَ أشرين ولا مرحين ولا متكبرين.

وقال الحسنُ: "علماءُ حلماءُ"، وقال محمد بن الحنفية: "أصحاب وقار وعفَّة لا يسفهون، وإن سُفِهَ عليهم حَلِمُوا، فهذا معنى قوله: {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}".

وكذلك ذكر سبحانه بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة: ٥٤].

فلمَّا كان الذلُّ منهم ذلَّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات؛ قال سبحانه: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}؛ تضمينًا لمعاني هذه الأفعال؛ فإنه لم يُرِدْ به ذُلَّ الهوان الذي صاحبه ذليلٌ، وإنما التواضع الذي صاحبه ذَلُولٌ؛ فالمؤمنُ ذلولٌ، وقوله: {أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}، هو من عزة القوة والمنعة والغلبة، كما قال عطاءٌ -رضي الله عنه-: "للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسَّبُعِ على فريسته"، كما قال في الآية الأخرى: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩].

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ).

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ).

وفي الصحيحين مرفوعًا: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ، مُسْتَكْبِرٍ)، وفي حديث احتجاجِ الجنةِ والنار: (أنَّ النارَ قالت: ما لي لا يدخلني إلا الجبَّارونَ والمتكبرون، وقالت الجنة: وما لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ)[١]، وهو في الصحيح.

وكذلك عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: (يقول الله -عزّ وجلّ-: العزّة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فقد عذّبتُه)[٢].

وكان النبي ﷺ يمرُّ على الصبيان فيسلِّمُ عليهم، وكانتِ الأمَةُ تأخذُ بيده ﷺ فتنطلق به حيثُ شاءت، وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعَهُ الثلاث، وكان ﷺ يكونُ في بيتِهِ في خدمة أهله، ولم يكنْ ينتقمُ لنفسه قطُّ، وكان ﷺ يخصفُ نعله، ويرقِّعُ ثوبه، ويحلبُ الشاة لأهله، ويعلفُ البعير، ويأكلُ مع الخادم، ويجالسُ المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ مَن لقيه بالسلام، ويجيبُ دعوةَ مَن دعاهُ ولو إلى أيسر شيء، وكان ﷺ هينَ المؤونة، ليّنَ الخلق، كريمَ الطَّبع، جميلَ المعاشرة، طلق الوجه، بسَّامًا متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيقَ القلب، رحيمًا بكلِّ مسلم، خافضَ الجناح للمؤمنين، لين الجانبِ لهم.

وقال ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أو بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ)، [رواهُ الترمذي][٣]، وقال ﷺ: (لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ)[٤].

---

[١] متفق عليه.

[٢] رواه مسلم بنحوه. ولفظه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ).

[٣] قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

[٤] رواه البخاري.

وكان ﷺ يعودُ المريض، ويشهدُ الجنازة، ويركبُ الحمار، ويجيبُ دعوة العبد، وكان يوم قريظة على حمارٍ مخطومٍ بحبلٍ من ليفٍ على إكافٍ من ليف، فهذه هي صفة تواضع النبي ﷺ؛ فهو سيدُ المتواضعين، وهو سيدُ الخلق أجمعين ﷺ.

سئل الفضيلُ بنُ عياضٍ عن التواضع، فقال: "يخضعُ للحق، وينقادُ له، ويقبلُهُ ممَّن قاله"، وقيل: التواضعُ ألا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسِهِ قيمةً فليس له في التواضع نصيبٌ، وقال الجنيدُ: "هو خفضُ الجناح، ولينُ الجانب"، وقال أبو يزيدَ البسطامي: "هو ألا يرى لنفسِهِ مقامًا ولا حالًا، ولا يرى في الخلق شرًّا منه"، وقال ابن عطاء: "هو قبولُ الحقِّ ممَّن كان، والعزُّ في التواضع، فمن طلبه في الكبر؛ فهو كتطلُّبِ الماءِ من النار".

ويُذكَرُ عن سفيان الثوري -رضي الله عنه- أنه قال: "أعزُّ الخلقِ خمسةُ أنفس: عالمٌ زاهدٌ، وفقيهٌ صوفيٌّ -يعني: عابدًا-، وغنيٌّ متواضعٌ، وفقيرٌ شاكرٌ، وشريفٌ سنيٌّ".

وقال عروة بن الزبير -رضي الله عنه-: "رأيتُ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على عاتقه قربةُ ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لمَّا أتاني الوفودُ سامعين مطيعين؛ دخلتْ نفسي نخوةٌ، فأردتُّ أن أكسرَها"، فرضي اللهُ عنه وأرضاهُ.

وولي أبو هريرة -رضي الله عنه- إمارةً مرَّة، فكان يحملُ حزمةَ الحطبِ على ظهرِهِ ويقولُ: "طرقوا للأمير".

وركب زيدُ بنُ ثابتٍ مرَّة، فدنا ابنُ عباسٍ ليأخذَ بركابه، فقال: "مَهْ يا ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ"، فقال: "هكذا أُمِرْنا أن نفعلَ بكبرائنا"، فقال: "أرني يدَك"، فأخرجها إليه فقبَّلها، وقال: "هكذا أُمِرْنا أن نفعلَ بأهل بيت رسول الله ﷺ".

وقسَّم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بين الصحابة -رضي الله عنهم- حُلَلًا، فبعث إلى معاذٍ حُلَّة مثمنة، فباعها واشترى بثمنها ستةَ أعبدٍ وأعتقهم، فبلغ ذلك عمرَ، فبعث إليه بعد ذلك حُلَّة دونَها، فعاتبه معاذٌ، فقال عمر: "لأنك بعتَ الأولى"، فقال معاذٌ: "وما

عليك، ادفعْ لي نصيبي، وقد حلفتُ لأضربنَّ بها رأسَك!"، فقال عمرُ -رضي الله عنه-: "رأسي بين يديك، وقد يرفق الشابُّ بالشيخ".

ومرَّ الحسن على صبيان معهم كِسَرُ خبز، فاستضافوهُ فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: "اليد لهم؛ لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني، ونحنُ نجدُ أكثرَ منه".

ويُذكَرُ أن أبا ذرٍّ -رضي الله عنه- عيَّر بلالًا -رضي الله عنه- بسواده، ثمَّ ندم فألقى بنفسِه، فحلف: "لا رفعتُ رأسي حتَّى يطأ بلالٌ خدي بقدمِه"، فلم يرفعْ رأسَهُ حتى فعلَ بلالٌ.

وقال رجاءُ بن حيوة: "قوَّمتُ ثيابَ عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- وهو يخطبُ باثني عشر درهمًا، وكانتْ قباءً وعمامةً وقميصًا وسراويلَ ورداءً وخفَّينِ وقلنسوة".

ورأى محمد بن واسع ابنًا له يمشي مشيةً منكرة، فقال: "تدري بكم شريتُ أمَّك؟ بثلاثمئة درهم! وأبوك -لا كثَّر الله في المسلمين مثلَه- أنا، وأنتَ تمشي هذه المشية؟!".

وقال حمدون القصَّار: "التواضعُ ألا ترى لأحدٍ إلى نفسك حاجة، لا في الدينِ ولا في الدُّنيا".

وقال إبراهيمُ بن أدهم: "ما سررتُ في الإسلام إلا ثلاثَ مرَّات: كنتُ في سفينةٍ وفيها رجلٌ مِضحاكٌ، كان يقول: كنَّا في بلاد الترك فأخذَ العلجُ هكذا، وكان يأخذُ بشعر رأسي ويهزُّني؛ لأنه لم يكن في تلك السفينة أحدٌ أحقرَ مني، والأخرى: كنتُ عليلًا في مسجد، فدخل المؤذِّنُ وقال: اخرجْ، فلم أطقْ، فأخذَ برجلي وجرَّني إلى خارج...".

فإن هؤلاء لما تواضعوا لله -جل وعلا-؛ رفعهم الله ورفع ذكرهم في عليِّين.

وقال بعضُهم: "رأيت في الطواف رجلًا بين يديه شاكريةٌ يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيتُهُ بعد ذلك بمدةٍ على جسر بغداد يسألُ شيئًا، فتعجبتُ منه، فقال:

إني تكبَّرتُ في موضعٍ يتواضع الناس فيه، فابتلاني اللهُ بالذلِّ في موضعٍ يترفَّعُ الناسُ فيه".

وبلغ عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه عمرُ: "بلغني أنك اشتريتَ فصًّا بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبعْ به ألفَ بطن، واتخذْ خاتمًا بدرهمين، واجعل فصَّهُ حديدًا صينيًّا، واكتبْ عليه: رحم اللهُ امرأ عرفَ قدرَ نفسِه".

فهذا التواضعُ تواضعُ السَّلفِ الصَّالح -رضوان الله عليهم- الذين أُمِرْنا أن نقتدي بهم، وأن نكونَ مثلَهم في هذهِ الأمور.

فإن ضد التواضع هو الكبرُ والحرصُ على أن يظهرَ الإنسانُ وأن يُظهِرَ نفسَهُ للخلق؛ فإن الكِبر والحرص هما أولُ ذنبٍ عُصِيَ الله به، فكان الكبرُ ذنبَ إبليسَ اللعين، فآل أمرُه إلى ما آل إليه، وذنبُ آدم -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- أنه كان حريصًا، فكانتْ عاقبته التوبة والهداية.

وذنبُ إبليسَ حمله على الاحتجاجِ بالقدر والإصرارِ على الذنب، وذنبُ آدم أوجب له إضافتَهُ لنفسِهِ والاعترافَ بهِ والاستغفار؛ فأهلُ الكبرِ والإصرارِ والاحتجاجِ بالأقدار، مع شيخهم وقائدهم إلى النارِ إبليس، أمَّا أهلُ الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجُّونَ عليها بالقدر؛ فمع أبيهم آدم في الجنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "التكبر شرٌّ من الشرك؛ فإن المتكبرَ يتكبر عن عبادة الله، والمشركَ يعبد الله وغيرَه".

ولذلك جعل الله النارَ دارَ المتكبرين، كما قال تعالى: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [سورة الزمر: ٧٢]، وقال: {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)}[سورة النحل]، وقال: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى





لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)} [سورة الزمر]، وأخبر أن أهل الكبر والتعجُّب هم الذين طبع الله على قلوبهم: {كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)} [سورة غافر].

وقال ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)[١]، وقال ﷺ: (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ)[٢].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} [سورة النساء: ٤٨]؛ تنبيهًا على أنَّه لا يغفرُ الكبرَ الذي هو أعظمُ من الشرك.

وكما أنَّ مَن تواضع لله رفعه؛ فكذلك من تكبَّر عن الانقيادِ للحقّ؛ أذلَّهُ اللهُ ووضعَهُ وصغَّرَهُ وحقَّره، ومَن تكبَّر عن الانقيادِ للحقِّ -ولو جاءَهُ على يدِ صغيرٍ أو مَن يبغضُهُ ويعاديه-؛ فإنما تكبُّرُه على الله؛ فإن الله هو الحقُّ، وكلامه الحقُّ، ودينه الحقُّ، والحقُّ صفتُه، ومنهُ ولهُ، فإذا ردَّهُ العبدُ وتكبَّر عن قبوله؛ فإنما ردَّ على الله وتكبَّر عليه، والله المستعان.

فهذه صفةُ التكبر، ولا يزالُ لنا حديثٌ معها، عسى أن نلتقي في الحلقة القادمة والدرس القادم؛ لنُكمِلَ ما يتعلَّقُ بهذه الصفة العظيمة، صفة الأنبياء والصديقين والصالحين الذين أنعم الله عليهم، نسألُ الله -جل وعلا- أن نكون معهم؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[١] رواه مسلم.

[٢] رواه مسلم.




# الحلقة الثانية عشرة: التواضع (٢)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فنكملُ ما يتعلَّقُ بأعمال القلوب والصفة التي أخذنا بعضَها في الدَّرس الماضي، ونكمل في هذا الدرس وهي التواضع، وقد عرفنا في الدرس الماضي أهمية هذه الصفة، وكيف كان السلفُ -رضوان الله عليهم- وأوَّلُهُم نبيُّنا ﷺ متواضعًا هينًا لينًا، مع أنه سيدُ الخلق ﷺ، كيفَ كان مَن بعده من الخلفاء الراشدين والصحابة -رضوان الله عليهم-، وكذلك من الأمراءِ والعلماءِ والحكَّامِ في عصر السَّلفِ الصَّالح.

التواضعُ ما هو؟ التواضع هو أن يتواضع العبدُ لصولة الحق، يعني: أن يتلقَّى سلطانَ الحق بالخضوع له، والذلِّ والانقيادِ والدخولِ تحت رقِّه؛ بحيثُ يكونُ الحق متصرفًا فيه تصرفَ المالك في مملوكه.

فبهذا يحصلُ للعبد خلقُ التواضع؛ ولهذا فسَّر النبي ﷺ الكبرَ بضدِّه، فقال: (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ)[١].

فبطرُ الحق: ردُّه وجحدُه والدَّفعُ في صدره كدفع الصَّائل.

وغمطُ الناس: احتقارُهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم؛ دفع حقوقَهم وجحدها واستهانَ بها.

ولمَّا كان لصاحبِ الحقِّ مقالةٌ وصَوْلَةٌ؛ كانتِ النفوس المتكبرة لا تقرُّ له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولا سيَّما النفوس المبطلة، فتصولُ على صولة الحق بكبرها

---

١ رواه مسلم.

وباطلها، فكانَ حقيقةُ التواضع خضوعَ العبد لصولة الحقِ وانقياده لها، فلا يقابلُها بصولتِهِ عليها.

وللتواضع درجاتٌ؛ **فمن أولها: التواضعُ للدين**؛ ألا يعارضَ بمعقولٍ منقولًا، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا، التواضعُ للدين هو الانقيادُ لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلامُ له والإذعانُ، وذلك بثلاثة أشياء:

أوَّلُها: ألا يعارضَ شيئًا مما جاء به بالمعارضاتِ الأربع السَّارية في العالم: المعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوصَ الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: "إذا تعارض العقلُ والنقلُ؛ قدمنا العقلَ وعزلنا النقل، إمَّا عزلَ تفويضٍ وإمَّا عزلَ تأويل".

والثانيةُ للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: "إذا تعارض القياسُ والرأيُ والنصوصُ؛ قدمنا القياسَ على النصِ ولم نلتفتْ إليه".

والثالثةُ للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوُّفِ والزهد، فإذا تعارضَ عندهم الذوقُ والأمرُ؛ قدموا الذوقَ والحالَ ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعةُ للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراءِ الجائرين، إذا تعارضتْ عندهم الشريعةُ والسياسة؛ قدموا السياسةَ ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاءِ الأربعةُ هم أهلُ الكبر، والتواضعُ التخلصُ من ذلك كلِّه.

أمَّا الثاني: فأن لا يتهم للدين دليلًا، بحيثُ يظنُّه فاسدَ الدلالة أو ناقصَ الدلالة أو قاصرَها، أو أن غيرَهُ كان أولى منه، ومتى عرضَ له شيءٌ من ذلك؛ فليتهمْ فهمَه، وليعلمْ أن الآفة منه والبلية فيه.

وهكذا الواقعُ في الحقيقة: أنه ما اتهم أحدٌ دليلًا للدين إلا وكان المتهمُ هو الفاسدَ الذهن، المأفون في عقلِهِ وذهنه؛ فالآفةُ من الذهنِ العليل، لا في نفسِ الدَّليل.

وأمَّا بالنسبة إلى غيرك؛ فاتهم آراء الرجال على نصوصِ الوحي، وليكنْ ردُّها أيسرَ شيءٍ عليك للنصوص، فما لم تفعلْ ذلك فلستَ على شيء، ولو.. ولو..، وهذا لا خلافَ فيه بين العلماء؛ ولذلك قال الإمامُ الشافعيُّ -رحمه الله-: "أجمع المسلمون على أن من استبانتْ له سنةُ رسول الله ﷺ؛ لم يحلَّ له أن يدعها لقول أحد".

والثالثُ: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلًا، لا بباطنِهِ ولا بلسانِه، ولا بفعلِهِ ولا بحاله، بل إذا أحسَّ بشيء من الخلاف؛ فهو كالخلاف المقدم على الزنا وشرب الخمر وقتل النفس، بل هذا الخلافُ أعظم عند الله من ذلك، وهو داعٍ إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبارُ والأئمةُ على نفوسهم.

واعلم أنَّ مخالفَ النصِّ لقول متبوعِهِ وشيخِهِ ومقلده، أو لرأيِهِ ومعقولِهِ وذوقِهِ وسياستِه، إنْ كانَ عند الله معذورًا -ولا والله ما هو بمعذورٍ-؛ فالمخالفُ لقولِهِ لنصوصِ الوحي أولى بالعذرِ عند الله ورسلِهِ وملائكتِهِ والمؤمنين مِنْ عباده.

فواعجبًا إذا اتسع بطلانُ المخالفين للنصوصِ لعذرِ مَن خلفها تقليدًا أو تأويلاً أو لغير ذلك؛ فكيف ضاق عن عذر من خالفَ أقوالَهُمْ وأقوالَ شيخِهم لأجلِ موافقةِ النص؟! وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوهُ الغوائل، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالًا من أرباب الجرائم؟! فرموهُ بدائهم، وانسلُّوا منه لواذًا، وقذفوهُ بمصابهم، وجعلوا تعظيمَ المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا.

ولا يصحُّ التواضع للدين إلا بأن يعلم أن النجاة في البصيرة، والاستقامةَ بعد الثقة، وأن البينة وراء الحجة؛ فعلمه أن النجاة من الشَّقاءِ والضلالِ إنما هي في البصيرة، فمن لا بصيرةَ له؛ فهو من أهل الضَّلالِ في الدنيا، والشقاءِ في الآخرة.

وأن يعلم أن الاستقامة إنما تكونُ بعد الثقة، أي: لا يتصوَّر حصول الاستقامة في القول والعمل والحال إلا بعد الثقة بصحَّة ما معه من العلم، وأنه مقتبسٌ من مشكاة النبوة، ومن لم يكنْ كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

والثالث: أن يعلم أن البينة وراء الحجَّة، والبينةُ المرادُ بها استبانةُ الحق وظهورُه، وهذا إنما يكونُ بعد الحجة، إذا قامتْ استبان الحقُّ وظهر واتضح.

**والدرجةُ الثانيةُ من التواضع:** أن ترضى بما رضي الحقُّ به لنفسِهِ عبدًا مِنَ المسلمين أخًا، وأن لا ترد على عدوك حقًّا، وأن تقبلَ من المعتذرِ معاذيره.

بمعنى: إذا كان اللهُ قد رضي أخاك المسلمَ لنفسِهِ عبدًا، أفلا ترضى أنتَ به أخًا؟! فعدم رضاك به أخًا -وقد رضيه سيدُك ومعبودُك الذي أنتَ عبدُهُ عبدًا لنفسه- عينُ الكبر، وأي قبيح أقبحُ من تكبُّر العبدِ على عبدٍ مثله لا يرضى بأخوته، وسيدُه راضٍ بعبوديته؟! فيجيءُ من هذا أن المتكبرَ غيرُ راضٍ بعبودية سيده؛ فعبوديتُه توجبُ رضاهُ بأخوة عبده، وهذا شأنُ عبيد الملوك؛ فإنهم يرون بعضَهم إخوةَ بعض، ومَن ترفَّع منهم عن ذلك؛ لم يكنْ من عبيدِ أسيادِهم.

وأن لا تردَّ على عدوك حقًّا، يعني: لا يصحُّ لك التواضعُ حتى تقبل الحق ممن تحبُّ وممن تبغض، فتقبلُه من عدوك كما تقبلُه من وليك، وإذا لم تردَّ عليه حقَّه؛ فكيف تمنعُه حقًّا له قِبَلَك؟! بل حقيقةُ التواضع؛ أنه إذا جاءك قبلتَه منه، وإذا كان له عليك حقٌّ أديتَه إليه، فلا تمنعُك عداوتُه من قبول حقِّه ولا من إيتائه إليه.

أما قبولك من المعتذر معاذيره؛ فمعناه: أن من أساء إليك، ثمَّ جاء يعتذرُ من إساءته؛ فإن التواضع يوجبُ عليك قبولَ معذرته حقًّا كانتْ أو باطلًا، وتكلُ سريرتَهُ إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلما قدم جاءوا يعتذرونَ إليه، فقَبِلَ أعذارَهم ووكل سرائرَهم إلى الله -جل وعلا-.

وعلامةُ الكرم والتواضع: أنك إذا رأيتَ الخللَ في عذرِهِ لا توقفُهُ عليه ولا تحاجُّه، وقل: يمكنُ أن يكونَ الأمرُ كما تقول، ولو قُضِيَ شيءٌ لكان، والمقدورُ لا مدفعَ له.

**والدرجةُ الثالثةُ من التواضع:** أن تَتَّضِعَ للحق، فتنزلَ عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقك في الصُّحبة، وعن رسمِكَ في المشاهدة.

بمعنى: أنَّ التواضعَ أن تخدم الحقَّ سبحانه وتعبدَهُ بما أمرك به، وعلى مقتضى أمره لا على ما تراه مِنْ رأيك، ولا يكونُ الباعثُ لك داعيَ العادة، كما هو باعثُ مَن لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمرًا فجرى عليه، ولو اعتاد ضدَّهُ لكان كذلك.

وحاصلُ هذا: أن لا يكون باعثُهُ على العبوديَّة مجردَ الرأي وموافقةَ الهوى ومحبةَ العادة، بل الباعثُ مجردُ الأمر، والرأيُ والمحبةُ والهوى والعوائدُ منفذةٌ تابعةٌ لذلك، لا أنها مطاعةٌ باعثةٌ، وهذه نكتةٌ لا ينتبه لها إلا أهلُ البصائر.

وأمَّا نزولُهُ عن رؤية حقِّهِ في الصُّحبة؛ فأن لا يرى لنفسِهِ حقًّا على الله لأجلِ عمله؛ فإن صحبتَهُ مع الله بالعبوديَّةِ والفقرِ المحضِ والذلِّ والانكسار، فمتى رأى لنفسِهِ عليه حقًّا؛ فسدتِ الصُّحبةُ وصارتْ معلولة، وخيف منها المقتُ، ولا ينافي هذا ما أحقَّهُ سبحانه على نفسِهِ من إثابة عابديه وإكرامهم؛ فإنَّ ذلك أحقَّهُ على نفسِهِ بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه، لا باستحقاقِ العبيد وأنَّهم أوجبوهُ عليه بأعمالهم، فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترقُ الطُّرق؛ فإن الربَّ سبحانه مَا لأحدٍ عليه حقٌّ، ولا يضيعُ لديه سعيٌ، كما قيل:

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبُ *** كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إنْ عُذِّبُوا فبعدلِهِ أو نُعِّمُوا *** فبفضلِهِ وهو الكريمُ الواسعُ

أي: مِنْ جملة التواضع للحق؛ فناؤك عن نفسك؛ فإن رسمَهُ هي نفسُه، والنزولُ عنها فناؤه عنها حين شهودِهِ -سبحانه وتعالى-، يعني: حين أن تتخلَّى بالله -سبحانه وتعالى- وقتَ الذِّكر، وهذا النزولُ يصحُّ أن يُقَالَ كسبيٌّ باعتبار أنَّه يتحصَّلُ به الإنسان،

وإن كان عند بعضهم غيرَ كسبي؛ لأنه يحصلُ عند التجلي، ويحصلُ بكثرة الذكر وكثرة التواضع لله -جل وعلا-.

هذه مرتبة التواضع التي هي متصلةٌ بما قبلها من الخوفِ والخشوع، ومتصلةٌ كذلك بأعمال القلب والعمل الأول الذي هو الإخلاصُ والصدقُ اللذان سبق الكلامُ عليهما.

نسألُ الله -جل وعلا- أن نكون من المتواضعين، وصلى الله وسلم على محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، على أملِ أن نلقاكُمْ في لقاءٍ آخر، والسلام عليكم ورحمة الله.

# الحلقة الثالثة عشرة: الزهد

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فهذا لقاءٌ آخرُ يتجدَّدُ بكم في سلسلة أعمال القلوب التي نسأل الله -جل وعلا- أن يعيننا جميعًا على فهمها، وعلى التخلُّق بها، وعلى العمل بها.

والمنزلةُ التي معنا اليوم والعملُ الذي معنا اليوم هو الزُّهد، وهو من أعظم صفات العابدين لله -جل وعلا-؛ لأنَّ فيه ابتعادًا عن الدُّنيا وزخرفها، قال الله تعالى: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ} [سورة النحل: ٩٦]، وقال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)} [سورة الحديد].

وقال سبحانه: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ} [سورة يونس: ٢٤]، وقال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} [سورة الكهف: ٤٥]، وقال سبحانه: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ} [سورة النساء: ٧٧]، وقال: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)} [سورة الأعلى]، وقال: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)} [سورة طه]، وقال: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)} [سورة الكهف]، وقال: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)} [سورة الزخرف].





فالقرآنُ مملوءٌ من التزهيدِ في الدنيا والإخبارِ بخسَّتِها وقلَّتِها وانقطاعِها وسرعةِ فنائها، والترغيبِ في الآخرة والإخبارِ بشرفِها ودوامِها، فإذا أراد اللهُ بعبده خيرًا؛ أقام في قلبه شاهدًا يعاينُ به حقيقة الدُّنيا والآخرة، ويؤثرُ منهما ما هو أولى بالإيثار.

قد أكثر الناس في الكلام على الزُّهد وفيما معناه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "الزهد تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة، والورعُ ترك ما تخافُ ضررَهُ في الآخرة"، يعني: أن الزهد قد تتركُ فيه المباحات، أمَّا الورعُ فهو تركُ المحرَّمات، وهذه العبارةُ من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعِهَا.

وقال سفيانُ الثوريُّ -رحمه الله-: "الزهدُ في الدُّنيا قصرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبسِ العباءة"، يعني: ليس بالأمور الظاهرة؛ لذلك جعلناهُ من أعمال القلوب.

وقال الجنيدُ: "سمعتُ سريًّا يقولُ: إن الله -عز وجل- سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب وداده؛ لأنه لم يرضَها لهم"، وقال: "الزهدُ في قوله تعالى: {لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)} [سورة الحديد]، فالزاهدُ لا يفرحُ من الدُّنيا بموجود، ولا يأسفُ منها على مفقود".

وقال يحيى بن معاذ: "الزُّهدُ يورثُ السخاءَ بالملك، والحبُّ يورثُ السخاءَ بالرُّوح"، وقال ابنُ جلاء: "الزهدُ هو النظرُ إلى الدنيا بعين الزَّوال، فتصغرُ في عينيك، فيسهلُ عليك الإعراضُ عنها"، وقيل: "الزهدُ وجودُ الراحة في الخروج من المُلْك"، وقالوا أيضًا: "الزهدُ سُلُوُّ القلبِ عن الأسباب، ونفضُ الأيدي من الأملاك".

قال الإمامُ أحمد: "الزهدُ في الدُّنيا قصر الأمل"، وقال يحيى بن معاذ: "لا يبلغ أحدٌ حقيقة الزهد حتَّى يكونَ فيه ثلاثُ خصال: عملٌ بلا علاقة، وقولٌ بلا طاعة، وعزٌّ بلا رياسة"، وسأل رؤيمٌ الجنيدَ عن الزهد، فقال: "استصغارُ الدُّنيا، ومحوُ آثارها من

القلب"، وقال مرة: "هو خلوُّ اليدِ عن الملك، والقلبِ عن التتبُّع"، وقيل: "الزهدُ الإيثارُ عند الاستغناء، والفتوَّةُ الإيثارُ عند الحاجة".

وقال الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-: "الزهدُ على ثلاثةِ أوجه: الأوَّلُ: تركُ الحرام، وهو زهدُ العوام، والثاني: تركُ الفضولِ من الحلال، وهو زهدُ الخواص، والثالث: تركُ ما يشغل عن الله، وهو زهدُ العارفين"، وهذا الكلامُ من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدَّم من التعريف السَّابق، وهو من أجمع الكلام، وهو يدلُّ على أنه -رضي الله عنه- من هذا العلم بالمحلِّ الأعلى.

والذي يتعلَّق به الزُّهدُ هو ستةُ أشياء: المالُ والصُّور والرياسةُ والناسُ والنفسُ وكلُّ ما دون الله -سبحانه وتعالى-.

والزهدُ تعريفُه -كما يقولُ أهل العلم-: "هو إسقاطُ الرغبة عن الشَّيءِ بالكليَّة"، بمعنى إسقاط الرغبة عن كلِّ ما سوى الله، وإزالتها من القلب، وإسقاط التعلُّقِ به، وقوله: "بالكليَّة" بحيثُ لا يلتفتُ إليه، ولا يتشوَّقُ إليه.

**ودرجاتُه على ثلاثة:**

**الدرجةُ الأولى**: الزهدُ في الشُّبهة بعد ترك الحرامِ بالحذرِ من المعتبة، والأنفةِ من المنقصة، وكراهةِ مشاركةِ الفُسَّاق.

يعني: ترك الشُّبهة، ما يشتبهُ على العبدِ هل هو حلالٌ أو حرامٌ، كما في حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه-: (الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ)[1]، قد جعل الله -عز وجل- بين كلِّ متباينين برزخاتٍ، كما جعل الموت وما بعده برزخًا بين الدنيا والآخرة، وجعل المعاصي برزخًا بين الإيمان والكفر، وكذلك -سبحانه وتعالى- جعل بين كلِّ مشعرين من مشاعر المناسك برزخًا وحاجزًا بينهما، ليس مِنْ هذا ولا مِنْ هذا.

---

[1] رواه البخاري.

فقوله: "بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة" أي: تركُ الشُّبهة لا يكونُ إلا بعد ترك الحرام، فيتركُ الحرامَ أولًا، ثم يترك ما اشتبه أنَّه فيه حرامٌ وفيه حلالٌ، "بالحذر من المعتبة" يعني: أن يكون سببُ الترك الحذرَ من توجُّهِ عتب الله -سبحانه وتعالى- عليه، وخوفِهِ مِنْ أن يقع في ذلك الحرام، "ويأنف من المنقصة" أي: يأنفُ لنفسِه من نقصه عند ربِّه وسقوطِه من عينه، لا أنفته من نقصه عند الناس وسقوطِه من أعينهم؛ لأن ذلك ليس من الأمور المحمودة، بل هو من الأمور المذمومة؛ فالمذمومُ أن تكونَ أنفتُه كلُّها من الناس، ولا يأنفَ من الله.

وقوله: "وكراهةُ مشاركةِ الفسَّاق"، يعني: أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدُّنيا؛ فتلك مواقفُهم وبها تكتظ أجسامهم، ويزدحمون عليها، لكن الزاهد يأنفُ من مشاركتهم في تلك المواقف، ويرفع نفسَه عنها؛ لخسَّة شركائه فيها، كما قيل: ما الذي زهَّدك في الدُّنيا؟ قال: "قلةُ وفائها، وكثرةُ جفائها، وخسَّةُ شركائها".

**أما الدرجة الثانية من الزهد**: فزهدُ الفضول، وهو ما زاد على المسكة والبلاغ من القوت باغتنامِ التفرُّغ إلى عمارةِ الوقت وحسمِ الجأش والتحلِّي بحلية الأنبياءِ والصديقين.

زهدُ الفضول يعني: ما يفضلُ عن قدر الحاجة، وما زاد على المسكة، يعني: ما يمسك النفسَ من القوتِ والشرابِ واللِّباس والمسكن والمنكح إذا احتاج إليه، والبلاغُ هو البلغةُ من ذلك، ما يتبلَّغ به المسافرُ في منازل السَّفر، فيزهدُ فيما وراء ذلك اغتنامًا لتفرُّغه لعمارةِ وقتِه بعبادة الله -سبحانه وتعالى-.

ولمَّا كان الزهدُ لأهل الدرجة الأولى خوفًا من المعتبة، وحذرًا من المنقصة؛ كان الزهدُ لأهل هذه الدرجة الثانية أعلى وأرفع، وهو اغتنامُ الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا؛ فاته نصيبُه من انتهاز فرصة الوقت؛ فإنَّ الوقتَ كالسَّيف، إن لم تقطعْهُ قطعك.

وعمارةُ الوقت: الاشتغالُ في جميع آنائه بما يقرِّبُ إلى الله سبحانه، أو يعينُ على ذلك من مأكل ومشرب ومنكح أو منام أو راحة؛ فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبُّه الله، وتجنَّبَ ما يسخطُه؛ كان من عمارة الوقت وإن كان له فيها أتمُّ لذة، فلا تُحسَبُ عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات.

وأمَّا حسمُ الجأش؛ فهو قطع اضطراب القلب المتعلق بأسباب الدُّنيا رغبةً ورهبةً وحبًّا وبغضًا وسعيًا، فلا يصحُّ الزهدُ للعبد حتَّى يقطع هذا الاضطرابَ من قلبه، بألا يلتفتَ إليها ولا يتعلقَ بها في حالتي مباشرتِهِ لها وتركِه؛ فإنَّ الزهدَ زهدُ القلب لا زهدُ الترك من اليد وسائر الأعضاء؛ فهو تخلِّي القلبِ عنها، لا خلوُّ اليدِ منها.

وأمَّا التحلي بحلية الأنبياء والصديقين؛ فإنهم أهلُ الزهد في الدنيا حقًّا، إذ هم مشمِّرون عَلَمَ الزهد، وهم الذين رفعوا لواءه، فهم الزاهدون وإن كانوا لها -أي: لهذه الدنيا- من المباشرين.

**أمَّا الدرجة الثالثة من الزهد**؛ فهي استحقارُ ما زهدتَّ فيه، واستواءُ الحالاتِ فيه عندك، استحقارُهُ يعني: مَن امتلأ قلبُهُ بمحبَّةِ الله وتعظيمِه؛ لا يرى أنَّ ما تركه من الدُّنيا يستحقُّ أن يُجعَلَ قربانًا؛ لأن الدُّنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فالعارفُ لا يرى زهدَه فيها كبيرَ أمرٍ يعتدُّ به ويحتفلُ له، فيستحي مَن صحَّ له الزهدُ أن يجعلَ لِمَا تَرَكَهُ لله قدرًا يلاحظُ زهدَه فيه، بل يفنى عن زهدِهِ فيه كما فني عنه.

وأمَّا استواءُ الحالاتِ فيه؛ فهو أن يرى ما تركه زهدًا وما أخذه متساويًا عنده؛ إذ ليس له عنده قدرٌ، وهذا من دقائق فقه الزهد، فيكون زاهدًا في حال أخذه كما أنه زاهدٌ في حال تركه؛ إذ همته أعلى من ملاحظتِهِ أخذًا وتركًا لصغره في عينه.

فهذه مرتبة الزهد التي هي من صفات المؤمنين، نسأل الله -جل وعلا- أن نكون من الزاهدين؛ إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه، ونسألُ الله -جل وعلا- أن نكون من الذين





يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنَه، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.




# الحلقة الرابعة عشرة: الورع

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فنواصلُ ما ابتدأنا به من سلسلة أعمال القلوب، وحلقةٍ جديدةٍ ودرسٍ آخرَ في هذا، ومنزلةٍ أخرى وعملٍ آخر نأخذُهُ من أعمال القلوب، العملُ الذي معنا اليومَ والمنزلةُ التي معنا هي الورع، وقد سبق الكلامُ في الدرس الماضي عن الزهد، وللزهدِ والورعِ ترابطٌ بينهما، وكما قال شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "إن الزهدَ هو تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة، والورعَ تركُ ما يضرُّ في الآخرة".

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)} [سورة المؤمنون]، وقال تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)} [سورة المدثر]، قال قتادةُ ومجاهدٌ: "نفسَك فطهِّرْ من الذَّنب"، فكنَّى عن النفسِ بالثوب، والمقصودُ أن الورع يطهِّرُ دنسَ القلبِ ونجاستَه، كما يطهِّرُ الماءُ دنسَ الثوبِ ونجاستَه.

وبين الثيابِ والقلوبِ مناسبةٌ ظاهرةٌ وباطنة؛ ولذلك تدل ثيابُ المرء في المنام على قلبِهِ وحالِه، ويؤثِّرُ كلٌّ منهما في الآخر؛ ولذا نُهِيَ عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع، لما تؤثِّرُ في القلبِ من الهيئةِ المنافيةِ للعبوديَّةِ والخشوع، وتأثير القلبِ والنفسِ في الثيابِ أمرٌ خفيٌّ يعرفُهُ أهلُ البصائر، من نظافتِها ودنسِها ورائحتِها وبهجتِها وكسفتِها، حتَّى إن ثوبَ البر ليُعرَفُ من ثوبِ الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبيُّ ﷺ الورع كله في كلمةٍ واحدةٍ فقال: (مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)[1]، فهذا يعمُّ التركَ لما لا يعني من الكلامِ والنظرِ والاستماعِ والبطشِ والمشيِ والفكرِ وسائرِ الحركاتِ الظَّاهرةِ والباطنة، فهذه الكلمةُ كافيةٌ شافيةٌ في الورع.

[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. قال الأرنؤوط: حسن بشواهده، وقال الترمذي: حديث غريب.

قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ -رحمه الله-: "الورعُ ترك كلِّ شبهة، وتركُ ما لا يعنيكَ هو تركُ الفضلات"، وفي الترمذيّ مرفوعًا إلى النبي ﷺ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ)[٢]، والورعُ أن يتورَّع عن كلِّ ما سوى الله تعالى، وقال إسحاقُ بنُ خلف: "الورعُ في المنطقِ أشدُّ منه في الذهب والفضة، والزهدُ في الرياسةِ أشدُّ منه في الذهب والفضة، لأنهما يبدلان في طلب الرياسة"، وقال بعضُهم: "الورعُ أولُ الزهد، كما أنَّ القناعةَ أولُ الرضا".

وقال يحيى بن معاذ: "الورعُ الوقوفُ على حدِّ العلمِ من غير تأويل"، وقال: "الورعُ على وجهين: ورعٌ في الظاهر، وورعٌ في الباطن، فورع الظاهر أن لا يتحرَّك إلا لله، وورعُ الباطنِ أن لا يدخل قلبك سواه"، وقال: "من لم ينظر في الدَّقيقِ من الورع؛ لم يصلْ إلى الجليلِ من العطاء"، وقيل: "الورعُ الخروجُ من الشَّهواتِ وتركُ السَّيئات".

وقال يونسُ بنُ عبيد: "الورعُ الخروجُ من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كلِّ طرفة عين"، وقال سفيانُ الثوري: "ما رأيتُ أسهلَ من الورع، ما حاك في نفسِكَ فاتركْهُ"، وقال سهلٌ: "الحلالُ هو الذي لا يُعصىَ اللهُ فيه، والصَّافي منه الذي لا ينسى الله فيه"، وسألَ الحسنُ غلامًا فقال له: "ما ملاكُ الدِّين؟"، قال: "الورعُ"، قال: "فما آفتُهُ؟"، قال: "الطَّمع"، فعجب الحسنُ منه.

وقال الحسنُ: "مثقال ذرةٍ من الورعِ خيرٌ من ألفِ مثقالٍ من الصَّومِ والصلاة"، وقال أبو هريرة: "جلساءُ الله غدًا أهلُ الورعِ والزهد"، وقال بعضُ السلف: "لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ التقوى حتى يدع ما لا بأسَ به حذرًا ممَّا به بأسٌ"، وقال بعضُ الصحابة: "كنا ندع سبعين بابًا من الحلال؛ مخافةَ أن نقع في بابٍ من الحرام".

فهذا اهتمامُ السلف الصالح -رضوان الله عليهم- بهذا الباب العظيم الذي هو بابٌ من أبواب الأتقياءِ الصالحين الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

---

[٢] رواه ابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد وأبو يعلى وغيرهم. قال الأرنؤوط: حديث حسن. قال الدارقطني في العلل: إنه غير ثابت.

والـورعُ هـو: تَـوَقٍّ مستقصىً على حـذرٍ وتحـرُّجٌ على تعظيم، هـذا تعريفُـه: تـوقٍّ مستقصىً على حذر، أن يتوقَّى الحرامَ والشُّبهَ وما يخافُ أن يضرَّهُ أقصى ما يمكنُهُ من التوقي؛ لأن التوقيَ والحذرَ متقاربان، إلا أن التوقيَ فعلُ الجوارح، والحذرَ فعلُ القلب؛ ولـذلك كان الـورعُ أصـله عملًا قلبيًّـا؛ فقـد يتـوقى العبـدُ الشيءَ لا على وجـه الحـذر والخـوف، ولكنْ لأمورٍ أخرى من إظهار نزاهـةٍ وعـزةٍ وتصوُّف، أو اعـتراضٍ آخـرَ كتـوقي الذين لا يؤمنون بمعادٍ ولا جنةٍ ولا نارٍ ما يتوقونَهُ من الفواحشِ والدناءةِ تصوُّنًا عنها، ورغبةً بنفوسِهِمْ من مواقعتِها، وطلبًا للمحمدة، ونحوِ ذلك.

أو تحـرُّجٌ على تعظيم، يعـني: أنَّ البـاعثَ على الـورع عن المحـارمِ والشُّـبه؛ إمَّـا حـذرُ حلولِ الوعيد، وإمَّا تعظيمُ الربِّ -جل جلاله- وإجلالُه أن يتعرَّض لما نهى عنه.

فهـا هنـا أمـران عظيمـان: أن يخـافَ من الوعيـد، وأن يعظِّمَ الـربَّ، فهـذا هـو أصـلُ الـورع، فـالورعُ عن المعصية إمَّا عن تخـوفٍ أو تعظيم، واكتفى بـذكر التعظيم عن ذكـر الحب البـاعث على تـرك معصية المحبوب؛ لأن هـذا الحب لا يكونُ إلا مع التعظيم، وإلا فلـو خلا القلبُ من التعظيم لم تسـتلزمْ محبتُـه تـركَ مخالفتـه، كمحبـة الإنسـانِ ولـدَهُ وعبدَهُ وأمتَه، فإذا قارنه التعظيم؛ أوجب ترك تلك المخالفة.

**والورعُ على درجات:**

**الدرجةُ الأولى: تجنُّبُ القبائح لصونِ النفسِ وتوفيرِ الحسناتِ وصيانةِ الإيمان.**

تجنُّب القبـائح لصـون النفس، يعـني: حفظهـا وحمايتهـا عمَّـا يشـينُها ويعيبُهـا ويـزري بهـا عند الله -سبحانه وتعالى- وملائكتِه وعبادِهِ المؤمنين، وسائرِ خلقه؛ فـإن من كَرُمَتْ عليـه نفسُـه وكَبُرَت عنده؛ صـانها وحمـاها، وزكَّـاها وعلاهـا، ووضعهـا في أعلى المحـالِّ، وزاحم بهـا أهـلَ العـزائمِ والكمـالات، ومَن هـانتْ عليـه نفسُـه وصَـغُرَتْ عنـده؛ ألقاهـا في الرَّذائـلِ وأطلقَ شـناقها، وحلَّ زمامَهـا وأرخـاهُ ودسَّـاها، ولم يصـنها عن قـبيح، فـأقلُّ مـا في تجنب القبائح صونُ النفسِ عن هذا كلِّه.

وأمَّا توفيرُ الحسنات؛ فمن وجهين:

أحدهما: توفيرُ زمانِهِ على اكتسابِ الحسنات؛ فإنه إذا اشتغل بالقبائح نقصتْ عليه الحسناتُ التي كان هذا الزمن ينبغي عليه أن يحصِّلَ فيه تلك الحسنات، لكنه لمَّا اقترفَ تلك القبائح شغل وقتَه بالقبائحِ وضيَّع وقتَه عن فعلِ الحسناتِ في ذلك، فخسر من جهتين.

أمَّا الوجهُ الثاني؛ فتوفيرُ الحسناتِ المفعولةِ عن نقصانِها بموازنة السَّيئاتِ وحبوطِها، كما تقدَّم في بعضِ المنازلِ السابقة؛ أن السيئاتِ قد تحبطُ الحسنات، وقد تستغرقُها بالكليَّة أو تنقصُها، فلا بدَّ أن تضعفَها قطعًا، فتجنبُها يوفرُ ديوانَ الحسنات، وذلك بمنزلة مَن له مالٌ حاصل، فإذا استدان عليه؛ فإمَّا أن يستغرقَهُ الدَّينُ أو يكثرُهُ أو ينقصه، فهكذا الحسناتُ والسيئاتُ سواءٌ.

وأمَّا صيانة الإيمان؛ فلأن الإيمان عند جميع أهل السُّنة والجماعة يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية، وهذا إجماعٌ حكاه كثيرٌ من العلماء، فإن المعاصي تضعفُ إيمانَ العبد، لكن إذا ترك هذه القبائحَ وتاب منها؛ فإن إيمانَه سيُصَانُ بفعله هذا؛ لأن كثرةَ ارتكابِ المعاصي تجعلُ على القلب الرَّانَ؛ لأنَّه إذا فعل الذَّنب، وإنْ عادَ فأذنب؛ نُكِتَتْ في قلبه نكتةٌ حتى تعلوَ قلبَه، وذلك الرانُ الذي قال اللهُ تعالى فيه: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)} [سورة المطففين].

فالقبائحُ تسوِّدُ القلوبَ وتطفئ نورها، ولكن الإيمان هو النورُ في القلب، والقبائحُ تذهبُ به أو تقلِّلُه قطعًا، لكن إذا فعل الحسناتِ وترك القبائح؛ فإن الحسناتِ تزيدُ نورَ القلوب، والسيئاتِ تطفئ نورَ القلوب، وقد أخبر الله -عز وجل- أن كسب القلوب سببٌ للرانِ الذي يعلوها، وأخبر أنَّه أركس المنافقين بما كسبوا، وأخبر أن نقضَ الميثاقِ الذي أخذهُ على عبادِهِ سببٌ لتقسية القلب فقال: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [سورة المائدة:١٣]، فجعل ذنب النقض موجبًا لهذه الآثار؛ مِنْ تقسيةِ القلبِ واللَّعنةِ وتحريف

الكلمةِ ونسيانِ العلم، فالمعاصي للإيمان كالمرض والحمَّى للقوة سواءً بسواء؛ ولذلك قال السَّلفُ: "المعاصي بريدُ الكفر، كما أنَّ الحمَّى بريدُ الموت".

**أمَّا الدرجةُ الثانيةُ من درجات الورع؛ فحفظُ الحدودِ عند ما لا بأسَ به**؛ إبقاءً على الصِّيانةِ والتقوى، وصعودًا عن الدَّناءة، وتخلُّصًا مِن اقتحامِ الحدود.

يعني: أنَّ مَن صعد عن الدرجة الأولى إلى هذه الدرجة من الورع؛ يترك كثيرًا ممَّا لا بأسَ به من الأمور المباحة؛ إبقاءً على صيانتِه وخوفًا عليها -أي: على نفسه- أن يتكدَّر صفوُها ويُطفَأ نورُها؛ فإنَّ كثيرًا من المباح يكدِّرُ صفوَ الصِّيانة، ويُذهِبُ بهجتَها ويطفئ نورَها، ويَخلِقُ حُسْنَهَا وبهجتَها، فالعارفُ يترك كثيرًا من المباحاتِ إبقاءً على صيانةِ نفسه، ولا سيَّما إذا كان ذلك المباحُ برزخًا بين الحلال والحرام، فإنَّ بينهما برزخًا كما تقدَّم، فتركُهُ لصاحبِ هذه الدرجة كالمتعيِّنِ الذي لا بدَّ منه؛ لمنافاته لهذه الدرجة.

أمَّا الصعودُ عن الدناءة؛ فهو الرفعُ عن طُرُقَاتِهَا وأفعالها.

أمَّا التخلصُ عن اقتحام الحدود؛ فإن الحدودَ هي النهاياتُ، فمن اقتحمها فقد وقع في المعاصي ووقع فيما نهاهُ الله -جل وعلا- عنه؛ فإنه قال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا} [سورة البقرة: ١٨٧]، {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا} [سورة البقرة: ٢٢٩]، فإنَّ الحدودَ يرادُ بها أواخرُ الحلال، وحيثُ نهى عن القربان؛ فالحدودُ هناك أوائلُ الحرام.

**أمَّا الدرجةُ الثالثةُ من درجات الورع؛ فالتورعُ عن كلِّ داعيةٍ تدعو إلى شتاتِ الوقتِ والتعلُّقِ بالتفرُّق، وعارضٍ يعارضُ حالَ الجمع.**

والفرقُ بين شتاتِ الوقتِ والتعلقِ بالتفرق؛ كالفرق بين السَّببِ والمسبب؛ فإنه يشتِّتُ وقتَه، فلا يجدُ بدًّا من التعلقِ بما سوى مطلوبِهِ الحقّ؛ إذ لا تعطيلَ في النفسِ ولا في الإرادة، فمن لم يكن اللهُ مرادَه أراد ما سواه، ومَن لم يكنْ هو وحدَهُ معبودَهُ عَبَدَ ما سواه، ومَن لم يكنْ عملُه لله فلا بدَّ أن يعملَ لغيره، فالمخلصُ يصونه الله بعبادته

وحده وإرادة وجهه وخشيته وحده ورجائه وحده والطلب منه والذل له والافتقار إليه وحده.

وإنما كان هذا أعلى الدرجات؛ لأنَّ أربابها اشتغلوا بحفظ الصِّيانةِ من الكدر وملاحظتِهَا، وذلك عند أهل الدَّرجةِ الثالثةِ تفرُّقٌ عن الحقِ واشتغالٌ عن مراقبته بحال نفوسهم، فأدبُ أهلِ هذهِ أدبُ حضور، وأدبُ أولئك أدبُ غيبة، وعلى هذا؛ فالورعُ الخاصُّ: الورعُ عن كلِّ حالٍ يعارضُ حالَ القيامِ بالأمر والبقاءِ بِهِ فَرْقًا وجَمْعًا، والله المستعان.

وإلى هنا تنتهي هذهِ الدرجةُ وهذه المنزلةُ العظيمة -منزلة الورع-، ولها ارتباطٌ شديدٌ جدًّا بمسألة الزُّهدِ في الدنيا؛ فإن الورع والزهد قرينان لا يفترقان أبدًا، ولا يمكنُ لأحدهما أن ينفكَّ عن الآخر، فلا بدَّ للإنسانِ أن يكونَ ورعًا عن المحرماتِ زاهدًا في المباحات؛ حتى يكونَ من عباد الرَّحمنِ الذين وصفهم الله -جل وعلا- في كتابه.

وإلى لقاءٍ آخر، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

# الحلقة الخامسة عشرة: تعظيم الله

الحمدُ لله رب العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، والصلاة والسلام على محمَّد وعلى آله وصحبِهِ أجمعين؛ أمَّا بعد:

فهذه حلقةٌ جديدةٌ ودرسٌ جديدٌ من سلسلة أعمال القلوب، نكملُ بها ما ابتدأناهُ في السَّابق، نسأل الله -جل وعلا- أن يعيننا عليها، وأن ينفع السَّامعينَ والملقيَ بذلك.

العملُ الذي معنا اليومَ والمنزلةُ التي معنا اليوم؛ هي التعظيمُ بجميع أنواعه: تعظيمُ الباري، وتعظيمُ أمره، وتعظيمُ قدره، وتعظيمُ أجره وثوابه.

فمنزلةُ التعظيمِ ومرتبةُ التعظيم هي راجعةٌ إلى معرفة الله -جل وعلا-؛ فعلى قدر معرفته سبحانه يكونُ تعظيم الربِّ -تبارك وتعالى- في القلب، وأعرفُ الناس بالله أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا.

وقد ذمَّ الله تعالى مَن لم يعظِّمْهُ حقَّ عظمته، ولا عرفه حقَّ معرفته، ولا وصفه حقَّ صفته، الله -جل وعلا- ينبغي أن يُعظَّمَ من المؤمن؛ ولذلك قال الله سبحانه: {مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)} [سورة نوح].

قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ: "لا ترجون لله عظمة"، وقال سعيدُ بنُ جبير: "ما لكم لا تعظِّمونَ الله حقَّ عظمتِه"، وقال الكلبيُّ: "لا تخافون لله عظمة"، وقال ابنُ كيسان: "لا ترجونَ في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إيَّاهُ خيرًا".

فإنَّ روحَ العبادةِ هو الإجلالُ والمحبة، فإذا تخلَّى أحدُهما عن الآخر فسدتْ، والإجلالُ والمحبة؛ إذا اقترنَ بهذين الثناءُ على المحبوبِ المعظَّم؛ فإنَّ ذلك حقيقةُ الحمد، وتعظيمُ الله -جل وعلا- يعني: إجلالَه ومحبتَه سبحانه وتعظيمه -سبحانه وتعالى-.

ولـذلك من درجـاتِ التعظيمِ الـتي ذكرهـا أهـلُ العلم؛ أولُ الـدَّرجات: تعظيمُ الأمـر والنهي، وهـو أن لا يُعارَضَا بـترخُّصٍ جـافٍ، ولا يُعرَّضَا لتشـدُّدٍ غـالٍ، ولا يُحمَلَا على علَّةٍ توهنُ الانقياد.

فإنَّ ها هنا ثلاثةَ أمور:

الأمرُ الأوَّل: تعظيمُ الأمرِ والنهي، أو تعظيمُ الأمـرِ والنهي يـدخلُ فيـه ثلاثـةُ أمـور: ألا يُعـارَضَ الأمرُ والنهيُ بـترخُّصٍ جـافٍ، وكـذلك ألا يُغَـالَى فيهمـا، وكـذلك ألا يُحمَلا على علَّة توهنُ الانقياد.

فالأوَّلُ هو الترخصُ الذي يجفو بصاحبِهِ عن كمال الامتثال، والثاني هو الغلوُّ الـذي يتجاوزُ بصاحبِهِ حدودَ الأمرِ والنهي، فالأولُ تفريطٌ، والثاني إفراطٌ، وما أَمَرَ الله بأمر إلا وللشيطانِ فيه نزعتـان: إمَّا إلى تفريطٍ وإضاعة، وإما إلى إفـراطٍ وغلـو، ودين الله وسـطٌ بين الجـافي عنـه والغـالي فيـه، كالوادي بين جبلين، والهُـدَى بين ضـلالتين، والوسـطُ بين طـرفينِ ذميمَينِ، فكمـا أنَّ الجـافيَ عن الأمـر مضـيعٌ لـه، فالغـالي فيـه مضـيعٌ لـه، هـذا بتقصيرِهِ عن الحد، وهذا بتجاوزِهِ الحدَّ.

**فهـذه هي الدرجـةُ الأولى الـتي أمـر الله -جـل وعلا- بهـا**، والـتي هي من أولى درجـاتِ التعظيم، يعـني: تعظيمَ الأمـرِ والنهي، وكـذلك اللهُ -سـبحانه وتعـالى- نهى عن الغلـوِّ في أوامره، وعن أن يكونَ الإنسانُ جافيًا عنها أو أن يكونَ مفرطًا فيها، قـال -جل وعلا-: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ} [سورة المائدة: ٧٧].

**فالغلوُّ هنا نوعان:**

غلـوٌّ يُخـرِجُ صـاحبَه عن كونـه مطيعًـا، كمن زاد في الصَّلاة ركعـة، أو صـام الـدَّهرَ مع أيام النهي، أو رمى الجمراتِ بالصَّخراتِ الكبارِ التي يُرمَى بها في المنجنيق.

وغلوٌّ يُخَافُ منه الانقطاعُ والاستحسار، كقيام الليل كله، وسردِ صيام الـدَّهرِ أجمع بدون صوم أيام النهي، والجورِ على النُّفوسِ في العباداتِ والأوراد.





وهذا الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: (إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلَّا غَلَبَه، فَسدِّدوا، وقارِبوا، وأبشِروا، ويسِّروا، واستَعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشيءٍ من الدُّلْجَة)[١]، وقال ﷺ: (لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشاطَهُ، فَإذا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ)[٢]، وقال ﷺ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) قالها ثلاثًا[٣]، وهم المتعمِّقُونَ المتشدِّدونَ، وقال ﷺ: (عَلَيْكُمْ ما تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمالِ، فَواللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا)[٤].

ثم قولُه: "ولا يُحمَلَا على علَّةٍ توهنُ الانقياد"، يريدُ ألا يتأوَّلَ في الأمرِ والنهيِ علةً تعودُ عليهما بالإبطال، كما تأوَّل بعضُهم تحريمَ الخمر بأنه معلَّلٌ بإيقاع العداوةِ والبغضاءِ والتعرُّضِ للفساد، فإذا أُمِنَ من هذا المحذورِ منه؛ جاز شربُه، وقد بلغ هذا الغلوُّ والفعلُ بأقوامٍ إلى الانسلاخ من الدِّين بجملة! قد حمل طائفةٌ من العلماء أن جعلوا تحريمَ ما عدا شرابِ خمرِ العنبِ معلَّلًا بالإسكار، فله أن يشربَ منه ما شاءَ ما لم يُسكِر!

ومِنَ العلل التي توهنُ الانقياد: أن يعلِّلَ الحكمَ بعلةٍ ضعيفةٍ لم تكن هي الباعثةَ عليه في نفس الأمر، فيضعف انقيادُ العبد إذا قام عنده أن هذه هي علةُ الحكم؛ ولهذا كانت طريقةُ القوم -يعني: الصَّحابة رضوان الله عليهم- عدمَ التعرضِ لعلل التكاليف خشيةَ هذا المحذور.

**أمَّا الدرجةُ الثانيةُ من درجاتِ التعظيم**؛ فتعظيمُ الحكم، بمعنى: أن يُبغَى له عوجٌ، أو يُدافَعَ بعلمٍ، أو يُرضَى بعوضٍ.

الدرجةُ الأولى من تعظيمِ الحكمِ تتضمنُ تعظيمَ الحكم الديني الشرعي، وهذه الدرجة تتضمنُ تعظيمَ الحكمِ الكونيِّ القدريِّ كذلك، وهو الذي يخصُّه المصنفُ باسم

---

[١] رواه البخاري والنسائي.

[٢] رواه البخاري.

[٣] رواه مسلم.

[٤] متفق عليه.

"الحُكْمِ"، يعني: الشيخَ الهرويَّ إسماعيلَ -رحمه الله-، وكما يجبُ على العبد أن يرعى حكم الله الدينيَّ بالتعظيم؛ فكذلك عليه أن يرعى حكمَه الكونيَّ.

فذكر من ذلك ثلاثةَ أمور:

أحدُها: أن لا يبغيَ له عوجًا أو يطلبَ له عوجًا أو يرى فيه عوجًا، بل يرى كلَّه مستقيمًا؛ لأنه صادرٌ عن عين الحكمة، فلا عوجَ فيه، وهذا موضعٌ أشكل على الناس جدًّا، ولكن السليمَ مَن أخذ بهذا الأمرِ وعملَ به.

**والدرجةُ الثالثةُ من درجاتِ التعظيم:** تعظيمُ الحقِّ -سبحانه وتعالى-، وهو أن لا يجعلَ دونه سببًا، ولا يرى عليه حقًّا، أو ينازعَ له اختيارًا.

هذه الدرجةُ تتضمنُ تعظيمَ الحاكمِ سبحانه صاحبِ الخلق والأمر، والتي قبلها تتضمَّنُ تعظيمَ قضائه لا مقضيِّه، والأولى تتضمَّنُ تعظيمَ أمره، فهنا تعظيمُ الأمر، وتعظيمُ قضائه سبحانه، وتعظيمه -سبحانه وتعالى-، هذه هي درجاتُ التعظيم التي ينبغي للمسلم أن يعمل بها.

فقالَ هنا: ألَّا تجعلَ دونه سببًا، أي: لا تجعلَ للوصلةِ إليه سببًا غيرَه، بل هو الذي يُوصِلُ عبده إليه، فلا يُوصِلُ إلى اللهِ إلا اللهُ، ولا يُقرِّبُ إليه سواه، ولا يُدنِي إليه غيرُه، ولا يُتوصَّلُ إلى رضاهُ إلَّا به، فما دلَّ على اللهِ إلا اللهُ، ولا هدى إليه سواه، ولا أدنى إليه غيرُه؛ فإنَّه سبحانه هو الذي جعل السَّببَ سببًا، فالسببُ وسببيَّتُهُ وإيصالُه؛ كلُّهُ خلقُه وفعلُه سبحانه.

والثاني: أن لا يرى عليه حقًّا، أي: لا ترى لأحدٍ من الخلق -لا لكَ ولا لغيرك- حقًّا على الله، بل الحقُّ لله على خلقِه، وأمَّا حقوقُ العبيد على الله من إثابتِهِ لمطيعهم، وتوبتِهِ على تائبهم، وإجابتِهِ لسائلهم؛ فتلك حقوقٌ أَحَقَّهَا اللهُ سبحانه على نفسِه بحكمِهِ ووعدِهِ وإحسانِه، لا أنها حقوقٌ أحقُّوها هم على أنفسِهم، فالحقُّ في الحقيقة لله على عبده، وحقُّ العبدِ عليه هو ما اقتضاهُ جودُه وبرُّه وإحسانُه إليه، بمحض جودِهِ وكرمه، هذا

هو قولُ أهل التوفيقِ والبصائر، وهو وسطٌ بين قولين منحرفين لأهل الضَّلالِ وأهل البدع.

وأمَّا قولُه: وأن لا يُنازَعَ له اختيارٌ، أي: إذا رأيتَ الله -عز وجل- قد اختار لك أو لغيرك شيئًا، إمَّا بأمرِهِ ودينِه، وإمَّا بقضائِهِ وقدرِه؛ فلا تُنازِع اختيارَه، بل ارضَ باختيارِه؛ لأن الله -جل وعلا- قال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [سورة الأحزاب: ٣٦]، فإنَّ ذلك هو تعظيمُ الله -سبحانه وتعالى-، وكذلك يجبُ عليه أن لا يردَّ عليه قدرَهُ بالمعاصي؛ فإنَّه سبحانه وإن قدَّرها؛ لكنَّه لم يخترْهَا له، فمنازعتُها غير اختيارِهِ مِنْ عبده، وهذا من تمام تعظيمِ العبدِ لربه.

والخلاصةُ أن يقال: إنَّه يجبُ أن يُعظِّمَ العبدُ ربَّه وأن يُعظِّمَ أمرَه وأن يُعظِّمَ قضاءه، فلا يعارضَ هذا بشيءٍ من الهوى أو العقل أو كلام الرِّجال.

وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين، وإلى اللقاءِ في درسٍ آخرَ وحلقةٍ أخرى.





# الحلقة السادسة عشرة: الغربة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فهذا درسٌ آخرُ وحلقةٌ أخرى من سلسلة أعمال القلوب، والعملُ الذي معنا اليومَ والمنزلةُ اليوم هي الغربة، ويا لها من منزلةٍ عظيمة! لا يعرفها إلا مَن كان عاملًا بالحقّ تاركًا لشهوات الدُّنيا وشبهاتها، قال الله -جل وعلا- وهو يذكرُ صفةَ الغرباء: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} [سورة هود: ١١٦].

فإن الغرباء في العالَم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: (بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)[١]، قيل: ومَنِ الغرباءُ يا رسولَ الله؟ قال: (الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)[٢]، وفي حديثٍ وروايةٍ أخرى: (طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)، قالوا: ومَنِ الغرباء؟ قال: (الذين يَزِيدُونَ إِذَا نَقَصَ النّاسُ)[٣]، وكذلك جاء في رواياتٍ أُخَر: (النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)[٤]، وفي رواياتٍ أُخَر: (نَاسٌ صَالِحُونَ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ)[٥]، وفي روايةٍ أخرى: (الْفَرَّارُونَ بِدِينِهِمْ يَجْتَمِعُونَ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ -عليه السلام- يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٦]، وفي رواية: (الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ)[٧].

---

١ روى مسلم هذا الجزء من الحديث.

٢ رواه أحمد، قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً بهذه السياقة.

٣ ليس في مسند أحمد ولا فضائل الصحابة، ونقله ابن القيم في مدارج السالكين وكذلك محمد بن عبد الوهاب في أحاديث الفتن وكلهما قال عن الإمام أحمد. أخرجه عليُّ بن حُجْر السعدي في حديثه (٣٦٧) من طريق عمرو بن المطلب عن المطلب به.

٤ رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح.

٥ رواه أحمد، قال الأرنؤوط: حسن لغيره.

٦ رواه أحمد في الزهد والبخاري في التاريخ الكبير وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد الكبير.

٧ رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم، والبيهقي في الزهد.

قال نافعٌ عن مالك: "دخل عمرُ بنُ الخطَّاب -رضي الله عنه- المسجد، فوجد معاذَ بنَ جبلٍ جالسًا إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له عمرُ: ما يبكيك؟ قال: يا أبا عبد الرَّحمن، هلك أخوك؟ قال: لا، ولكنَّ حديثًا حدَّثنيه حبيبي ﷺ وأنا في المسجد، فقال: ما هو؟ قال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَخْفِيَاءَ الْأَحْفِيَاءَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَبْرِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ عَمْيَاءَ مُظْلِمَةٍ)[١]".

فهؤلاءِ هم الغرباءُ الممدوحونَ المغبوطون، ولقِلَّتِهِمْ في الناسِ جدًّا سُمُّوا غرباء؛ فإنَّ أكثر الناسِ على غير هذه الصِّفات؛ فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السُّنة الذين يُميِّزُونَها من الأهواءِ والبدعِ هم الغرباء، والدَّاعونَ إليها الصَّابرونَ على أذى المخالفين هُمْ أشدُّ هؤلاءِ غربةً، ولكن هؤلاء هم أهلُ الله حقًّا، فلا غربةَ عليهم، إنما غربتُهم بين الأكثرين الذين قال الله -عز وجل- فيهم: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة الأنعام]، فأولئك هم الغرباءُ من الله ورسوله ودينه، وغربتُهم هي الغربةُ المُوحِشَةُ وإنْ كانوا هم المعروفين المشارَ إليهم.

**والغربةُ لها ثلاثةُ أنواع:**

**النوعُ الأوَّلُ:** غربةُ أهلِ الله وأهلُ سنة رسولِهِ ﷺ بين هذا الخلق، وهي الغربةُ التي مدح رسولُ الله ﷺ أهلَها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبًا، وأنه سيعودُ غريبًا كما بدأ، وأنَّ أهلَهُ يصيرونَ غرباء، وهذه الغربةُ قد تكونُ في مكانٍ دونَ مكان، ووقتٍ دونَ وقت، وبين قومٍ دون قوم.

ولكن أهل هذه الغربة هم أهلُ الله حقًّا؛ فإنَّهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسول الله ﷺ ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناسَ أحوجَ ما كانوا

---

[١] رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم وقال صحيح الإسناد. قال الحافظ العراقي: بل ضعيف، فِيهِ عِيسَى بن عبد الرَّحْمَن وَهُوَ الزرقي مَتْرُوك.

إليهم، فـإذا انطلـق النـاسُ يـوم القيامـة مـع آلهتهم؛ بقـوا في مكانهم، فيقـالُ لهم: ألا تنطلقونَ حيثُ انطلقَ النـاسُ؟ فيقولـون: "فـارقنـا النـاسَ ونحنُ أحـوجُ إليهم منَّـا اليـوم، وإنا ننتظرُ ربَّنا الَّذي كنَّا نعبدُه"، فهذه الغربةُ لا وحشةَ على صاحبِهَا، بل هـو آنسُ ما يكونُ إذا اسـتوحشَ النـاسُ، وأشـدُّ ما تكونُ وحشـتُه إذا استأنسـوا؛ فوليُّـهُ اللهُ ورسـولُهُ والذين آمنوا وإنْ عاداهُ أكثرُ الناسِ أو جَفَوهُ.

ومِن هـؤلاء الغربـاءِ مَن ذكـرهم أنسٌ في حديثِـهِ عن النـبي ﷺ: (رُبَّ أشـعثَ أغـبرَ ذي طِمْرَيْنِ لا يُؤبَهُ لـه، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ)[1]، وفي حديثِ أبي إدريسَ الخـولانيِّ عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: "قال رسولُ الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ، عَنْ مُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: (كلُّ ضعيفٍ أغبرَ ذي طِمْرَينِ لا يُؤبَهُ له، لـو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ)[2]".

وقـال الحسـنُ: "المؤمنُ في الـدُّنيا كالغريب، لا يجـزع من ذلِّهَـا، ولا يُنـافِسُ في عزِّهـا، للناسِ حالانِ وله حالٌ، الناسُ منه في راحة، وهو من نفسِهِ في تعب".

ومن صـفاتِ هـؤلاءِ الغربـاءِ الـذين غبطهُمُ النـبيُّ ﷺ: التمسـكُ بالسـنة إذا رغب عنها الناسُ، وتَرْكُ ما أحدثوهُ وإن كان هـو المعروفَ عندهم، وتجريدُ التوحيدِ وإنْ أنكر ذلك أكثرُ النـاس، وتركُ الانتسـابِ إلى أحدٍ غير الله ورسـوله، لا شـيخ ولا طريقـة ولا مذهب ولا طائفـة، بل هـؤلاءِ الغربـاءُ منتسـبون إلى الله بالعبوديَّةِ لـه وحـده، وإلى رسـوله بالاتبـاعِ لِمَا جاءهم به وحـده، وهـؤلاء هم القابضـون على الجمـر حقًّا، وأكثرُ النـاس -بل كلُّهم- لائمٌ لهم؛ فلغربتهم بين هذا الخلق يُعِدُّونَهم أهلَ شذوذٍ وبدعةٍ ومفارقة للسَّوادِ الأعظم.

ومعنى قـول النبي ﷺ في تفسير الغرباء: (هُمُ النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)؛ أن الله سبحانه بعث رسـولَهُ وأهـلُ الأرضِ على أديـانٍ مختلفـة؛ فهم بين عبَّـادِ أوثـانٍ ونـيران، وعبَّـادِ صُـوَرٍ وصلبان، ويهـودَ وصـابئةٍ وفلاسـفة، وكان الإسـلام في أول ظهـوره غريبًـا، وكان مَن أسـلمَ

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب. قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه ابن ماجه، ورواة إسناده محتجّ بهم في الصحيح إلا سويد بن عبد العزيز. قال الحافظ العراقي: إسناده جيد.

منهم واستجابَ لله ولرسوله غريبًا في حيِّهِ وقبيلتِهِ وأهلِهِ وعشيرتِه، فكان المستجيبونَ لدعوة الإسلام نُزَّاعًا من القبائلِ بلْ آحادًا منهم، تغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم ودخلوا في الإسلام، فكانوا هُمُ الغرباءَ حقًّا، حتَّى ظهرَ الإسلامُ وانتشرتْ دعوتُه، ودخل الناسُ فيه أفواجًا، فزالتْ تلك الغربةُ عنهم.

ثمَّ أخذ في الاغترابِ والترحُّل حتى عاد غريبًا كما بدأ، بل الإسلامُ الحقُّ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه هو اليومَ أشدُّ غربةً منه في أول ظهوره، وإنْ كانتْ أعلامُه ورسومُه الظاهرةُ مشهورةً معروفة، فالإسلامُ الحقيقيُّ غريبٌ جدًّا، وأهله غرباءُ أشد الغربة بينَ الناس، وكيفَ لا تكونُ فرقةٌ واحدةٌ قليلةٌ جدًّا غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقةً ذات أتباع ورئاساتٍ ومناصبَ وولايات، ولا يقومُ لها سوقٌ إلا بمخالفة ما جاء به الرَّسول؟! فإن نفس ما جاء به يضادُّ أهواءهم ولذاتِهِمْ وما هُمْ عليه من الشُّبهاتِ والبدعِ التي هي منتهى فضيلتِهِمْ وعملِهِم، والشَّهواتِ التي هي غايةُ مقاصدِهِمْ وإرادتِهِم.

فكيفَ لا يكونُ المؤمنُ السَّائرُ إلى الله على طريقِ المتابعةِ غريبًا بين هؤلاءِ الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحَّهُمْ وأُعْجِبَ كلٌّ منهم برأيه؟! كما قال النبي ﷺ: (مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر؛ حتَّى إذا رأيتُمْ شُحًّا مطاعًا وهَوًى متبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، ورأيتَ أمرًا لا يدَ لك إليه؛ فعليك بخاصَّة نفسِك، وإياك وعوامَّهم؛ فإنَّ مِن ورائكم أيامًا صبرُ الصابرِ فيهنَّ كالقابضِ على الجمر).

ولهذا جُعِلَ للمسلم الصادق في هذا الوقت إذا تمسَّكَ بدينه أجرُ خمسينَ من الصَّحابة؛ ففي سنن أبي داودَ والترمذيِّ من حديثِ أبي ثعلبةَ الخشنيِّ قال: "سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [سورة المائدة: ١٠٥]، فقال: (بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى

الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ)، قلت: يا رسولَ الله، أجرُ خمسينَ منهُمْ؟ قال: (أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)[١].

وهذا الأجرُ العظيمُ إنما هو لغربته بين الناس، والتمسُّكِ بالسنة بين ظلماتِ أهوائهم وآرائهم، فإذا أراد المؤمنُ الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه وفقهًا في سنَّة رسوله وفهمًا في كتابه، وأراهُ مَا الناسُ فيه من الأهواءِ والبدعِ والضَّلالات، وتنكُّبِهم عن الصراطِ المستقيمِ الذي كان عليه الرسولُ ﷺ، فإذا أراد أن يسلكَ هذا الصِّراط: فليوطِّنْ نفسَه على قدحِ الجهَّالِ وأهلِ البدعِ فيه، وطعنِهِمْ عليه وإزرائهم به، وتنفيرِ الناسِ عنه وتحذيرِهِمْ منه، كما كان سلفُهُمْ من الكفَّارِ يفعلونَ مع متبوعِهِ وإمامِه ﷺ.

فأمَّا إنْ دعاهم إلى ذلك وقدحَ فيما هُمْ عليه؛ فهنالك تقومُ قيامتُهم، ويبغون له الغوائل، وينصبونَ له الحبائل، ويجلبونَ عليه بخيلِ كبيرِهِمْ ورجْلِه، فهو غريبٌ في دينِهِ لفساد أديانهم، غريبٌ في تمسُّكه بالسنة لتمسُّكهم بالبدع، غريبٌ في اعتقادِهِ لفسادِ عقائدِهِمْ، غريبٌ في صلاته لسوءِ صلاتهم، غريبٌ في طريقِهِ لضلالِ وفسادِ طُرُقِهم، غريبٌ في نسبتِه لمخالفة نسبهم، غريبٌ في معاشرتِهِ لهم لأنَّه يعاشرُهم على ما لا تهوى أنفسُهم، وبالجملة؛ فهو غريبٌ في أمور دنياهُ وآخرته، لا يجدُ من العامَّةِ مساعدًا ولا معينًا.

فهو عالمٌ بين جُهَّال، صاحبُ سنة بين أهل بدع، داعٍ إلى الله ورسوله بينَ دعاةٍ إلى الأهواءِ والبدع، آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروفُ لديهم منكرٌ والمنكرُ لديهم معروف.

هذه هي أوَّلُ درجاتِ الغربة التي نسألُ الله -جل وعلا- أن يحشرنا مع هؤلاءِ الغرباء، وأن نكونَ منهم، وأن يعينَنا على سلوكِ طريقِ هؤلاء، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين، على أملِ أن نلتقيَ في درسٍ آخرَ وحلقةٍ أخرى.

---

[١] قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ.

# الحلقة السابعة عشرة: السكينة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فهذه حلقةٌ جديدةٌ ودرسٌ آخرُ من سلسلة أعمال القلوب، نسأل الله -جل وعلا- أن ينفع بها السَّامعينَ والملقي، والمنزلةُ التي معنا اليومَ والعملُ الذي معنا اليومَ هو السكينة.

وقد ذكر الله -جل وعلا- هذه المنزلةَ وهذه المرتبةَ في ستة مواضعَ في كتابه، فمنها قولُهُ -جل وعلا-: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} [سورة البقرة: ٢٤٨].

ومنه قولُهُ -جل وعلا-: {ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة: ٢٦].

ومنه قولُهُ: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} [سورة التوبة: ٤٠].

ومنه قولُهُ: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)} [سورة الفتح].

ومنه قولُهُ: {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)} [سورة الفتح].

ومنه قولُهُ: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الفتح: ٢٦].





وأصلُ السكينةِ هي الطُّمأنينةُ والوقارُ والسكونُ الذي يُنْزِلُه الله في قلبِ عبدِهِ عند اضطرابِهِ من شدَّة المخاوف، فلا ينزعجُ بعد ذلك لِمَا يَرِدُ عليه، ويوجبُ له زيادةَ الإيمانِ وقوَّةَ اليقينِ والثبات؛ ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضعِ القلقِ والاضطراب، كيوم الهجرة إذ هو وصاحبُهُ في الغارِ والعدوُّ فوقَ رؤوسِهم، لو نظر أحدُهم إلى ما تحتَ قدميه لرآهما، وكيومِ حُنَيْنٍ حينَ ولَّوا مدبرين من شدَّةِ بأسِ الكفَّار، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد، وكيومِ الحديبيةِ حين اضطربتْ قلوبُهم من تحكُّمِ الكفَّار عليهم، ودخولِهم تحتَ شروطِهِمُ التي لا تحملُها النُّفوس، وحسبك بضعفِ عمرَ -رضي الله عنه- عن حملها -وهو عمرُ-؛ حتَّى ثبته الله بالصِّدِّيقِ -رضي الله عنه-.

قال ابن عباس -رضي الله عنه-: "كلُّ سكينةٍ في القرآنِ فهي طمأنينةٌ، إلا التي في سورة البقرة"، وفي الصحيحين عن البراءِ بنِ عازبٍ -رضي الله عنهما- قال: "رأيتُ النبي ﷺ ينقلُ من ترابِ الخندقِ، حتَّى وارى الترابُ جِلدةَ بطنه، وهو يرتجزُ بكلمة عبدِ اللهِ بنِ رواحة -رضي الله عنه-:

(اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا *** وَلَا تَصَدَّقْنا وَلَا صَلَّيْنا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنا *** وَثَبِّتِ الأَقْدامَ إِنْ لَاقَيْنا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنا *** وَإِنْ أَرادُوا فِتْنَةً أَبَيْنا)".

وفي صفة رسول الله ﷺ في بعض الكتبِ المتقدمة: "إنِّي باعثٌ نبيًّا أميًّا، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا متزينٍ بالفحش، ولا قَوَّالٍ للخنا، أسدِّدُه لكلِّ جميل، وأهبُ له كلَّ خُلُقٍ كريم، ثمَّ أجعلُ السكينةَ لباسَه، والبِرَّ شعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ مقولَه، والصِّدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَه، والعدلَ سيرتَه، والحقَّ شريعتَه، والهدى إمامَه، والإسلامَ ملتَه، وأحمدَ اسمَه".

والسكينةُ لها درجاتٌ:

فأوَّلُ أنواعِ السكينةِ هي سكينةُ الخشوعِ عند القيامِ للخدمة؛ رعايةً وتعظيمًا وحضورًا، يعني: لعبادة الله -جل وعلا-، فسكينةُ الوقارِ هذهِ هي نوعٌ من السكينة، ولكن لمَّا كانتْ موجبةً للوقارِ سُمِّيَت سكينةَ الوقار.

فمعنى قوله: "سكينةُ الخشوعِ عند القيام للخدمة"، يعني: لعبادة الله -سبحانه وتعالى-؛ فإنَّ الإيمانَ لمَّا كان موجبًا للخشوعِ وداعيًا إليه؛ قال الله -جل وعلا-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [سورة الحديد: ١٦] دعاهُمْ من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني: أما آنَ لهم أن يصلوا إلى الإحسانِ بالإيمان، وتحقيقُ ذلك بخشوعِهِمْ لذكره الذي أنزله عليهم.

وقوله: "رعايةً وتعظيمًا وحضورًا"، هذه ثلاثةُ أمورٍ من السكينةِ تُحقّقُ الخشوعَ في الخدمة، وهي: رعايةُ حقوقِها الظَّاهرةِ والباطنة، فليس يضيعها خشوعٌ ولا وقار.

والثاني تعظيمُ الخدمةِ وإجلالُها، وذلك تبعٌ لتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره؛ فعلى قدر تعظيمه في قلبِ العبدِ وإجلالِهِ ووقارِه؛ يكونُ تعظيمُ خدمتِه وإجلالُهُ ورعايتُه لها.

والثالثُ الحضورُ، وهو إحضارُ القلبِ فيها مشاهدةَ المعبودِ كأنه يراه، وهي مرتبة الإحسان التي أخبر عنها النبي ﷺ، فهذه الثلاثُ تُثمِرُ للإنسان سكينةَ الوقار.

والدرجةُ الثانيةُ من درجاتِ السكينة: السكينةُ عند المعاملة؛ بمحاسبةِ النُّفوس، وملاطفةِ الخلق، ومراقبةِ الحقِّ.

فأوَّلها: محاسبةُ النُّفوس، يعني: حتَّى تعرفَ ما لها وما عليها، ولا يَدَعَها تسترسلُ في الحقوقِ استرسالًا فيضيعُها ويهملُها؛ فإنَّ زكاتها وطهارتها موقوفةٌ على محاسبتِها، فلا تزكو النفوسُ ولا تطهرُ ولا تصلحُ البتة إلا بمحاسبتِها؛ قال الحسنُ -رضي الله عنه-: "إنَّ المؤمن -والله- لا تراهُ إلا قائمًا على نفسِه: ما أردتِّ بكلمة كذا؟ ما أردتِّ بأكلة كذا؟ ما أردتِّ بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردتِّ بهذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعودُ إلى هذا، ونحو هذا من الكلام"، فبمحاسبتِها يطَّلعُ على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السعيُ في إصلاحها.

والثاني: ملاطفةُ الخلق، وهي معاملتهم بما يحبُّ أن يعاملوهُ به من اللُّطف، ولا يعاملهم بالعنفِ والشدَّةِ والغلظة؛ فإن ذلك ينفِّرُهم عنه ويغريهم به، ويُفسِدُ عليه قلبَه وحالَه مع اللهِ ووقتَه؛ فليس للقلبِ أنفعُ من معاملةِ الناسِ باللُّطف؛ فإنَّ معاملةَ الناسِ بذلك إمَّا أجنبيٌّ فتكسبُ مودتَهُ ومحبتَه، وإمَّا صاحبٌ وحبيبٌ فتستديمُ صحبتَه ومودتَه، وإمَّا عدوٌّ ومبغضٌ فتُطفِئُ بلطفك جمرتَه، وتستكفي شرَّه، ويكونُ احتمالُك لمضضِ لطفِكَ به دونَ احتمالِكَ لضررِ ما ينالُك من الغلظةِ عليه والعنفِ به.

والثالث: مراقبةُ الحقِّ سبحانه، وهي الموجبةُ لكلِّ صلاحٍ وخيرٍ عاجلٍ وآجل، ولا تصلحُ الدرجتانِ الأوليانِ إلَّا بهذه، وهي المقصودُ لذاتِه، وما قبله وسيلةٌ إليه وعونٌ عليه؛ فمراقبةُ الحقِّ -سبحانه وتعالى- توجبُ إصلاحَ النفسِ واللُّطفَ بالخلق.

فهذه هي درجاتُ السكينةِ التي أمر الله -جل وعلا- بها، وأنزلها على عباده؛ فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- يُنزِلُ السكينةَ على عبادِهِ حتى يعبدوهُ -جل وعلا- وحتَّى يَطْمَئِنُّوا في عبادتهم له -سبحانه وتعالى-.

أسألك -سبحانك وتعالى- أن تُنزِلَ علينا السكينةَ في أمورنا كلها، وأن تعينَنا على عبادتِكَ بسكينة؛ إنك وليُّ ذلك والقادرُ عليه، إلى لقاءٍ آخرَ وحلقةٍ أخرى، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

# الحلقة الثامنة عشرة: صلاح القلب

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فهذا درسٌ آخر جديدٌ من سلسلة أعمال القلوب، وما يتعلَّقُ بفقهها وأهميتِه، أخذنا في الدَّرس الماضي ما يتعلَّقُ بمنزلة القلب، ودرسُنا اليومَ يكونُ عن صلاح القلب، وكيف يَصلُح، وكيف يُصلِحُ الإنسانُ هذه المضغةَ الصغيرةَ التي هي أساسُ صلاح البدن، قال الله -جل وعلا-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)} [سورة الأنفال]، وقال الله سبحانه: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)} [سورة التغابن].

فأصل كلِّ خيرٍ وسعادةٍ للعبدِ كمالُ حياته وكمالُ نوره؛ فالحياةُ والنورُ مادةُ الخيرِ كله في الدُّنيا والآخرة؛ فبالحياة تكونُ قوَّتُه وسمعُه وبصرُه وحياؤه وعفتُه وشجاعتُه وصبرُه وسائر أخلاقِهِ الفاضلة، ومحبتُه للحسنِ وبغضُه للقبيح، وكلما قويتْ حياتُه قويتْ فيه هذه الصِّفات، وإذا ضعفتْ حياتُه ضعفتْ فيه هذه الصِّفات، وحياؤه من القبائحِ هو بحسبِ حياتِهِ في نفسِه؛ فالقلبُ الحيُّ إذا عُرِضَت عليه القبائحُ نَفَرَ منها بطبعِه وأبغضَها ولم يلتفتْ إليها، بخلافِ القلبِ الميت؛ فإنَّه لا يفرِّقُ بين الحسن والقبيح، وكذلك القلبُ المريضُ بالشَّهوة؛ فإنه لضعفه يميلُ إلى ما يُعرَضُ له من ذلك فيعطبُ.

وكذلك إذا قوي نورُ القلبِ وإشراقُه؛ انكشفتْ له صُوَرُ المعلوماتِ وحقائقُها على ما هي عليه، فاستبانَ حُسْنَ الحَسَنِ بنورِهِ وآثارَه بحياتِه، وكذلك قبحُ القبيح، والقرآنُ نورٌ

تستضيءُ به القلوبُ وتشرق به، وروحٌ تحيا به القلوب، فالمؤمنُ حيٌّ أكرمه الله بالنور الذي يُبصِرُ به الحقَّ من الباطل.

والكافرُ ميتُ القلبِ مغمورٌ في ظلمة الجهل، والكافرُ لانصرافِهِ عن طاعةِ الله، وجهلِهِ بمعرفتِه وتوحيدِه وشرائعِه وسننِه، وتركِ العملِ بما يُؤدِّي به إلى نجاتِه وسعادتِه؛ بمنزلة الميّتِ الذي لا ينفعُ نفسَه ولا يدفعُ عنها مكروهًا، فإذا هداهُ اللهُ للإسلام، وجعلَ قلبَه حيًّا بعد موته، ومشرقًا ومستنيرًا بعد ظلمتِه؛ فصار يعرفُ مضارَّ نفسِه ومنافعَها، ويعملُ في خلاصِها من سخطِ اللهِ وعقابِه، وأبصرَ الحقَّ بعد عماهُ عنه، وعَرَفَهُ بعد جهلِهِ به، واتَّبعَهُ بعد إعراضِه عنه، وحصلَ له نورٌ يستضيءُ به ويمشي به في النَّاس، كما قال سبحانه: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)} [سورة الأنعام].

وحياةُ القلبِ واستنارتُهُ تحصلُ بالاستجابة لله والرَّسول ﷺ ومَا يدعوانِ إليه مِنَ العلمِ والإيمان، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)} [سورة الأنفال]، وحياةُ القلبِ وصحتُه لا تحصلُ إلَّا بأن يكونَ مُدرِكًا للحقِّ مريدًا له مؤثرًا له على غيره، فاللهمَّ أرِنا الحقَّ حقًّا وارزقْنا اتباعَه.

والقلبُ فيه قوَّتان: قوةُ العلمِ والتمييز، وقوةُ الإرادةِ والمحبَّة، وكمالُ القلبِ وصلاحُهُ باستعمالِ هاتينِ القوَّتينِ فيما ينفعُه، فكمالُ استعمالِ قوَّةِ العلمِ في إدراك الحقّ ومعرفتِه والتمييزِ بينه وبين الباطل، وباستعمالِ قوَّةِ الإرادةِ والمحبةِ في طلبِ الحقّ ومحبتِه وإيثارِه على الباطل، فمن لم يعرفِ الحقَّ فهو ضالٌّ، ومَن عرفَهُ وآثر غيرَه عليه فهو مغضوبٌ عليه، ومَن عرفه واتَّبعَهُ فهو مُنعَمٌ عليه.

فالمسلمون أخصُّ بالحقِ لأنهم عرفوهُ واتبعوهُ، واليهودُ أخصُّ بالغضبِ لأنهم أمَّةُ عنادٍ عرفوا الحقَّ فلم يتبعوه، والنصارى أخصُّ بالضَّلالِ لأنهم أمَّةُ جهلٍ عرفوا الحقَّ

وضلُّوا عنه، وقد أمرنا الله -عز وجل- بطلبِ الهدايةِ إلى طريقِ الحقّ، وهو طريقُ المنعَمِ عليهم بمعرفةِ الحقِّ والعملِ به، بقوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [سورة الفاتحة].

وكلُّ إنسانٍ خاسرٌ في هذهِ الحياةِ إلَّا مَن كَمُلَتْ قوَّتُه العلميَّةُ بالإيمانِ بالله، وقوَّتُهُ العمليَّةُ بالعملِ بطاعةِ الله تعالى، فهذا كمالُهُ في نفسِه، ثمَّ كمَّل غيرَه بوصيتِه له بذلك، وأمرِهِ إيَّاهُ به، والصَّبرِ على ذلك، قال سبحانه: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [سورة العصر].

وهاتان القوَّتان لا تتعطَّلان في القلب، بل إنِ استعملَ العبدُ قوَّتَه العلميةَ في معرفةِ الحقِّ وإدراكه، وإلَّا استعملها في معرفةِ مَا يليقُ به ويناسبُه من الباطل، وكذا قوَّتُهُ الإراديَّةُ إن استعملها في العملِ بالحقِّ، وإلا استعملها في ضدِّه.

ولا سعادةَ للقلبِ ولا لذَّةَ ولا نعيمَ ولا صلاحَ إلا بأن يكون اللهُ هو إلهَه وفاطرَه ومعبودَه وحدَهُ لا شريكَ له؛ فكل مخلوقٍ وكل حيٍّ سوى الله سبحانه من ملكٍ أو إنسٍ أو جنٍّ أو حيوانٍ أو نبات؛ فهو فقيرٌ إلى ربه في جلبِ ما ينفعُه ودفعِ ما يضرُّه، ولا يتمُّ ذلك إلا بتصوُّرِهِ للنافعِ والضَّار.

والمنفعةُ من جنسِ النعيمِ واللذَّة، والمضرَّةُ من جنسِ الألمِ والعذاب، فلا بدَّ للعبدِ من أمرين: أحدُهما: معرفةُ ما هو المحبوبُ المطلوبُ الذي ينتفعُ به ويلتذُّ بإدراكه، والثاني: معرفةُ المُعِينِ الموصلِ المحصِّلِ لذلك المقصود، وبإزاءِ ذلكَ أمرانِ آخران: أحدهما: مكروهٌ بغيضٌ ضارٌّ، والثاني: معينٌ دافعٌ لَهُ وعنهُ.

فهذه الأربعةُ ضروريَّةٌ لكلِّ عبدٍ بل لكلِّ حيوان، وإذا ثبت ذلك؛ فاللهُ تعالى هو الذي يجبُ أن يكونَ هو المقصودَ المدعوَّ المطلوبَ الذي يُرَادُ وجهُه ويُبتَغَى قربُهُ ويُطلَبُ رضاهُ،

وهو المعينُ على حصولِ ذلك، وعبوديَّةُ ما سواهُ والالتفاتُ إليه والتعلقُ به هو المكروهُ الضَّارُّ، واللهُ هو المعينُ على دفعِه.

وهو سبحانه الجامعُ لهذه الأمور الأربعة دون سواه؛ فهو المعبودُ المحبوبُ المراد، وهو المعينُ لعبدِه على وصوله إليه وعبادته له، والمكروهُ والبغيضُ إنما يكونُ بمشيئته وقدره، وهو المعينُ لعبده على دفعِهِ عنه، والله -تبارك وتعالى- خلق الخلقَ لعبادتِهِ الجامعةِ لمعرفتِهِ والإنابةِ إليه ومحبتِه والإخلاصِ له؛ فبذكره سبحانه تطمئنُّ قلوبُهم، وتسكنُ نفوسُهم، وبرؤيتِهِ في الآخرةِ تقرُّ أعينُهم ويتمُّ نعيمُهم، فلا يعطيهم سبحانه في الآخرة شيئًا خيرًا لهم ولا أحبَّ إليهم ولا أقرَّ لعيونهم من النظرِ إليه وسماعِ كلامِهِ منهُ ورضوانِهِ عليهم، ولم يعطهم في الدُّنيا شيئًا خيرًا لهم ولا أحبَّ إليهم ولا أقرَّ لعيونهم من الإيمانِ به ومحبتِهِ والشَّوقِ إلى لقائه والأنسِ بقربه والتنعُّمِ بذكرِهِ وعبادته.

وحاجةُ العبادِ إلى ربهم في عبادتهم إيَّاهُ أعظمُ من حاجتهم إليه في خلقِهِ لهم ورزقِهِ إيَّاهم ومعافاةِ أبدانهم؛ فإن العبادةَ هي الغايةُ المقصودةُ لهم، ولا صلاحَ ولا سعادةَ لهم بدون ذلك.

والله -تبارك وتعالى- يريدُ من خلقِهِ أن يعرفوا أطيبَ ما في الدنيا وأطيبَ ما في الآخرة، فيُقْبِلُوا عليه علمًا وعملًا، ويعرفوا شرَّ ما في الدُّنيا وشرَّ ما في الآخرة، فيحذروهُ ويجتنبوهُ، والأصلُ هو القلبُ، فإن كان صالحًا صلحتْ أعمالُ الجوارح، وإن كانَ فاسدًا فسدتْ أعمالُ الجوارح.

والعينُ تُبصِرُ في ضوءِ الشَّمسِ صورةَ الشيءِ لا حقيقةَ الشيء امتحانًا وابتلاءً، ولكن لا يعرفُ الحقيقةَ إلا القلبُ، ويعرفُ القلبُ ذلك إذا كان فيه نورُ الإيمان، فكما تحتاجُ العينُ إلى الضوءِ الخارجيِّ لمعرفة الأشياء ورؤيتِها؛ فكذلك القلبُ لا يعرفُ حقيقةَ الشيءِ إلا بنورِ الإيمان، ومن اسودَّ قلبُهُ لا يعرفُ حقيقةَ الأشياء، بل يعرفُ صُوَرَ الأشياء، وإذا استنار القلبُ بنور الإيمان أناب إلى الله، فأحبَّ الطاعاتِ وكره المعاصي.

وبنورِ القلبِ تَبِينُ قيمةُ الأموالِ والأشياءِ وقيمةُ الإيمانِ والأعمال، ولا يبقى للعبدِ تعلُّقٌ بالدُّنيا، بل يكونُ تعلقُهُ بالآخرة، ونورُ الإيمان في القلبِ يُرسِّخُ حقيقةَ الوعدِ والوعيد، وإذا جاءتْ حقيقةُ الوعدِ والوعيدِ زدنا في الطَّاعاتِ، ونفرنا من المعاصي، وزهدنا في الدُّنيا، ورغبنا في الآخرة.

ونور القلب في الدُّنيا يكون مستورًا، وفي الآخرة يكونُ ظاهرًا للمؤمنين، وبامتثالِ أوامرِ الله وفعلِ كل سنَّة؛ يزدادُ نورُ القلب، وبمخالفة السُّنَنِ يزيدُ ظلامُ القلبِ وتثقلُ الطَّاعات، ومحبةُ الله نورٌ في القلبِ والوجه، ومحبةُ غيرِ اللهِ ظلامٌ في القلبِ والوجه، وكلُّ مَن أقرَّ بلا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله؛ جاء النورُ في قلبِه، وإذا جاء نورُ الهدايةِ في القلب؛ سَهُلَ تطبيقُ أوامرِ اللهِ والإكثارُ منها والتلذُّذُ بها، ودعوةُ الناسِ إليها، والصَّبرُ على كلِّ ذلك، ونور الهداية في القلب أن يتيقَّنَ العبدُ أن المعطي والمانع والمعزَّ والمذلَّ والنافع والضارَّ والمحيَ والمميتَ فقط هو اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له.

وحاجاتُ القلبِ كثيرةٌ كالبحر، وحاجاتُ البدنِ كالقطرة؛ لأن القلبَ محلُّ الإيمان، والإيمان ليس له حدٌّ، وبالإيمان يسعدُ الإنسانُ في الدُّنيا والآخرة، والإيمانُ يزيدُ في القلوبِ بكثرة الطَّاعات، والنظرِ في الآياتِ الكونيَّةِ والآياتِ القرآنية، والجهدِ للدِّين، وتحصُل بذلك الهداية، ولكنَّ الباطلَ لا يزولُ إلا بالتضحيةِ بكل شيءٍ من أجل إعلاءِ كلمة "لا إله إلا الله"؛ بالأموالِ والأنفسِ والشَّهواتِ والجاهِ والأوقات.

ولمَّا تركتِ الأمَّةُ التضحيةَ بذلك؛ نقصَ الإيمانُ وقلَّتِ الطَّاعاتُ وكثرتِ المعاصي، فجاء البلاءُ والفسادُ والعقاب؛ فالشيطانُ يُزيِّنُ للإنسانِ الشَّهواتِ التي عاقبتُها الهلاك، والأنبياءُ يأمرونَ الناسَ بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ التي عاقبتُها الفلاح.

وزينة القلبِ بالإيمان، وزينة الجوارح بالأعمال، وزينةُ الإنسانِ الداخليةُ والخارجيةُ تكمُلُ بالأخلاقِ الحسنةِ التي وصف اللهُ بها نبيَّه محمَّدًا ﷺ بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)} [سورة القلم].

اللهمَّ أَصْلِحْ قلوبَنا جميعًا، واجعل قلوبَنا تعملُ بطاعتِك في الظَّاهر، وأن تعينَ على العملِ الباطنِ كذلك؛ إنك وليٌّ ذلك والقادرُ عليه، وإلى لقاءٍ آخرَ في درسٍ آخر، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.




# الحلقة التاسعة عشرة: عمل القلب ومنزلته

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فما زلنا نواصلُ في سلسلة أعمالِ القلوبِ وما يتعلقُ بالقلب، وكنَّا قد أخذنا في الدُّروسِ الماضية ما يتعلقُ بأنواع أعمالِ القلوب، كالتوكُّل والزُّهد والورع والإخلاص والصِّدق، ونحوِ هذه مِنَ الأعمال، وننتقلُ اليومَ وفي هذه الحلقاتِ القادمةِ إلى ما يتعلَّقُ بفقهِ القلوب، صلاحها، وأنواعِ القلوبِ وأقسامِه.

ودرسُنا اليومَ سيكونُ عن منزلة القلب وأهمية عمل القلب؛ قال الله -جل وعلا-: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)} [سورة ق]، وقال النبي ﷺ: (أَلَا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحارِمُهُ، أَلا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وهِيَ القَلْبُ)[١].

والله -تبارك وتعالى- فضَّل الإنسان وشرَّفه على كثير من خلقه باستعداده لمعرفةِ الله سبحانه، التي هي في الدُّنيا جماله وكماله وفخره وسعادته وأُنسُه، وفي الآخرة عدَّتُه وذخرُه، وإنما استُعِدَّ للمعرفة بقلبه، لا بجارحةٍ من جوارحه؛ فالقلبُ هو العالم بالله، وهو المتقرِّبُ إلى الله، وهو العاملُ لله، وهو السَّاعي إلى الله، وهو العالمُ بما عند الله، وإنما الجوارحُ أتباعٌ له وخدمٌ وآلات، يستخدمها القلبُ ويستعملها استعمالَ المالكِ للعبد، واستخدامَ الراعي للرَّعية، واستخدامَ الإنسانِ للآلة.

فالقلبُ هو المقبولُ عند الله إذا سَلِمَ من غير الله، وهو المحجوبُ عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو الذي يسعدُ بالقربِ من الله فيفلح إذا زكَّاه، وهو الذي يخيبُ ويشقى إذا دنَّسه ودسَّاه، وهو المطيعُ في الحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشرُ على

[١] متفق عليه.

الجوارح من العبادات والأخلاق أنوارُهُ وآثارُه، وبحسب ما فيه من النورِ والظلامِ تظهرُ محاسنُ الظاهرِ ومساويه؛ إذ كلُّ إناءٍ بما فيه ينضحُ، والقلوبُ كالقدور تغلي بما فيها.

وصلاحُ العالَم وفسادُه يكون بحسب حركة الإنسان في الحياة؛ إذ هو قلبُ العالَم ولبُّه، وصلاحُ بدن الإنسان وفسادُه قائمٌ على صلاح القلبِ وفسادِه، كما قال النبي ﷺ في الحديث السَّابق: (أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ)، فالقلبُ هو الذي إذا عرفه الإنسانُ فقد عرف نفسَه، وإذا عرف نفسَه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسانُ فقد جهل نفسَه، ومن جهل نفسَه فقد جهل ربه، ومن عرف ربه فقد عرف كلَّ شيء، ومن جهل ربه فقد جهل كلَّ شيء، ومن جهل قلبَه فهو بغيره أجهلُ، وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وربهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم؛ فإنَّ الله يحولُ بين المرء وقلبه، كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)} [سورة الأنفال].

وحيلولتُه بأن يمنعَه سبحانه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة أسمائه وصفاته، وكيفية تقلُّبِه بين إصبعين من أصابع الرحمن أنَّه كيف يهوي مرَّةً إلى أسفلِ سافلين، وينخفضُ إلى رتبة الشَّياطين، وكيف يرتفعُ أخرى إلى أعلى عليِّين، ويرتقي إلى عالَم الملائكة المقرَّبين.

وحاجةُ القلبِ إلى معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعالِه أعظمُ من حاجة البدن إلى الطَّعامِ والشَّراب، بل نسبةُ حاجاتِ القلبِ إلى الإيمان ومعرفة الله -عز وجل-، وحاجاتِ البدنِ للطَّعام والشَّراب؛ كالذرَّةِ بالنسبة للجبل، وكالقطرةِ بالنسبة للبحر.

وقد خلق الله -عز وجل- في كلِّ إنسانٍ ثلاثَ أوانٍ أساسيَّة، ألا وهي الدماغُ، والقلبُ، والمعدة.





فالدماغُ آنيةُ العقلِ والعلم، والقلبُ آنيةُ الإيمانِ والتَّوحيد، والمعدةُ آنية الطَّعام والشَّراب، فلكلِّ آنيةٍ غذاءٌ، ولكلِّ غذاءٍ ثمرة.

فالقلبُ محلُّ الإيمانِ والتصديقِ واليقينِ والتعظيمِ لربِّ العالمين، والخوفِ منه والتوكلِ عليه ومحبَّتِه والأنسِ به، ومعرفتِه والانقيادِ له والتسليمِ له سبحانه؛ ولذا صار القلبُ محلَّ نظرِ الله من العبد، كما قال النبي ﷺ: (إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) [أخرجه مسلم].

وأصلُ العلمِ الذي يورثُ العمل، ويوجبُ خشوعَ القلبِ وخشيتَه لربِّه ومحبتَه له والقربَ منه والأنسَ به والإقبالَ عليه ولزومَ طاعته؛ هو العلمُ بالله، وهو معرفة أسمائه وصفاته وآلائه ونعمِه، وصفاتِ جلاله وجماله، ثمَّ معرفة وعدِهِ ووعيدِه، وماذا أعدَّ الله من النعيمِ للمتَّقين، وماذا أعدَّ من العذابِ للمجرمين، ثمَّ يتلوهُ العلمُ بأحكامِ الله وما يحبُّه ويرضاهُ من العبدِ من قولٍ أو عملٍ أو حالٍ أو اعتقاد، ويستقيمُ على ذلك إلى أن يموت.

ومَن فاته هذا العلمُ النافع؛ وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ بقوله: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا)[١].

والله -تبارك وتعالى- خلق الإنسانَ في أحسنِ تقويم، خلق القلبَ للإنسانِ يعلمُ به الأشياء، وخلق العينَ يرى بها الأشياء، وخلق الأذنَ يسمعُ بها الأصوات، وخلق العقلَ يَعقِلُ به الأشياء، كما خلق سبحانه كلَّ عضوٍ من أعضائه لأمرٍ من الأمور، وعملٍ من الأعمال، فاليدُ للبطش، والرِّجلُ للسَّعي، واللسانُ للنطق، والفمُ للأكل، والأنفُ للشم، وكذلك سائرُ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنة.

فإذا استعمل الإنسانُ العضوَ فيما خُلِقَ له وأُعِدَّ لأجله؛ فذلك هو الحقُّ، وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العضو، والعضوُ لربِّه وللشَّيءِ الذي استُعمِلَ فيه، وإذا لم يستعملِ

---

[١] رواه مسلم.

العضوَ في حقِّه بل ترك باطلًا؛ فذلك خسرانٌ وصاحبُه مغبونٌ، وإن استُعمِلَ في خلافِ ما خُلِقَ له؛ فهو الضَّلالُ والهلاكُ وصاحبُه من الذينَ بدَّلوا نعمةَ الله كفرًا.

وسيدُ الأعضاءِ ورأسُها ومَلِكُها هو القلبُ، والفكرُ للقلبِ كالإصغاءِ للأذن، وصلاحُ القلبِ وحقُّه والذي خُلِقَ من أجله هو أن يعقلَ الأشياء، فيعرفَ ربه ومعبودَه وفاطرَه، وما ينفعُه وما يضرُّه، وما يُصْلِحُهُ وما يُفْسِدُه، ويعرفَ أسبابَ النجاة وأسبابَ الهلاك، ويميِّزُ بين هذا وهذا، ويختارُ ما ينفعُه وما يُصلِحُه، ويعتصمُ بالله ولا يلتفتُ إلى ما سواه، والناسُ متفاوتون في الخَلْق، ومتفاوتون في عقلِهِمُ الأشياءَ مِنْ بينِ كاملٍ وناقص، وفيما يعقلونَهُ من بينِ قليلٍ وكثير، وجيّدٍ ورديء.

**وإذا آمنَ العبدُ بالله؛ أكرم الله قلبَهُ بعشرِ كرامات:**

**الأولى: الحياةُ**

قال سبحانه: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)} [سورة الأنعام]، ومَن أحيا أرضًا ميتةً فهي له، وكذلك الله -عز وجل- خلق القلبَ وجعل فيه نورَ الإيمان، فلا يجوزُ أن يكونَ لغيره فيه نصيبٌ.

**الثَّانيةُ: الشِّفاءُ**

قالَ سبحانه: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)} [سورة التوبة]، فالعسلُ شفاءُ الأبدان، والإيمانُ شفاءُ القلوب، والعلمُ شفاءٌ مِنَ الجهل.

**والثَّالثةُ: الطَّهارةُ**

فالصَّائغُ إذا امتحن الذَّهبَ مرَّة لا يُدْخِلُهُ النار، وكذلك اللهُ إذا امتحن قلوبَ المؤمنين لا يُدْخِلُهُمُ النار؛ {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)} [سورة الحجرات].

**الرَّابعةُ: الهدايةُ**

قالَ سبحانه: {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)} [سورة التغابن].

**الخامسةُ: ثبوتُ الإيمان**

فكما أنَّ الورقةَ إذا كُتِبَ فيها قرآنٌ لم يجزْ إحراقُها، فكذلك قلبُ المؤمن إذا كُتِبَ فيه الإيمانُ لم يجز إحراقُه؛ قال تعالى: {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)} [سورة المتحنة].

**السَّادسةُ: السَّكينةُ**

قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)} [سورة الفتح].

**السَّابعةُ: الأُلفةُ**

قال سبحانه: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)} [سورة الأنفال].

**الثَّامنةُ: الطُّمأنينةُ**

قال سبحانه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)} [سورة الرعد].

**التَّاسعةُ: المحبَّةُ**

قال سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)} [سورة الحجرات].

**العاشرةُ: الزينةُ والحفظُ من السُّوء**

قال سبحانه: {وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)} [سورة الحجرات].

فبهذا نعرفُ منزلةَ القلبِ من البدن، ومنزلةَ هذهِ المضغةِ الصَّغيرةِ التي خلقها الله -جل وعلا- أنها هي المحرّكةُ لجميع البدن، وأنَّها أصلٌ، وأنَّ عملَ الجوارحِ فرعٌ عنها، وليس معنى كونِهِ فرعًا أنَّه يمكنُ أن يكونَ عملٌ في القلبِ دون أن يظهرَ على الجوارح، بل معنى كونِهِ فرعًا أنَّه ثمرةٌ من ثمراته؛ فصلاحُ القلبِ صلاحُ الظَّاهر، وفسادُ القلبِ هو فسادُ الظَّاهر.

وبهذا ننتهي من هذا الدَّرس، إلى أن نلتقيَ في درسٍ آخر، وصلى الله وسلم على محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين

# لا تنسوا إخوانكم من الدعاء




الخلافة